صورة الرسول محمّد ﷺ في عيون الاستشراق الإيطاليّ
(دراسة في النشأة والتطوّر والامتداد)

د. محمّد العمارتي[1]

مقدّمة

تعترض طريق الباحث في الاستشراق الإيطاليّ المهتمّ بالسيرة النبويّة عبر مسيرته التاريخيّة عقبات كثيرة ومتنوّعة نشير إلى بعضها:

– ندرة البحوث والدراسات المتخصّصة التي تخصّ الموضوع بالدرس والتحليل والمتابعة العلميّة، في تجلّياته وصوره المعرفيّة والتاريخيّة، إذ لم يحظ بأهمّيّة كبرى لدى الباحثين العرب على وجه الخصوص مثلما هو الحال بالنسبة إلى بقيّة المدارس الاستشراقية الأخرى (الإنجليزيّة–الألمانيّة–الفرنسيّة–الأمريكيّة...).

– قلّة الترجمات العربيّة التي لا تستطيع في وضعها الحاليّ أن تبلور وعيًا ودراية عربيّين كافيّين بما يكتبه الآخر الإيطاليّ عن سيرة المصطفى ﷺ وعن حياته، من شأنها أن تخلق موقفًا أو تصوّرًا عربيًّا خاصًّا وواضحًا إزاء هذه الأعمال الاستشراقيّة الإيطاليّة التي تأخذ مجال السيرة النبويّة ضمن انشغالها واشتغالها العلميّين.

ثمّ إنّ الباحث العربيّ في تعامله مع هذا المبحث العلميّ الحيويّ سيجد نفسه دائمًا –للأسباب التي ذكرناها– في حالة من السعي الدائب والمستمرّ نحو المصادر الأجنبيّة، الإيطاليّة منها بالخصوص التي تناولت الموضوع، ومن ثمّ فهو يحتاج إلى الترجمات وإنجازاتها وثرائها وتعدّد محاورها في الموضوع، لخلق حوار تواصليّ علميّ مع هذه الدراسات والمصادر الإيطاليّة.

---

١. باحث أكاديمي من المغرب.

إذا مـا وضعنـا طبيعة الاهتمامـات الإيطاليّـة بالسـيرة وقارنّاها بمثيلاتهـا في الخطابات الاستشراقيّة العالميّة الأخرى (الإنجليزيّة-الألمانيّة-الفرنسيّة-الهولنديّة...) أي ما تحقّق عندها من إنجازات علميّة تخصّ موضوع السيرة، فإنّ الأمر المؤكّد هو أنّ الاستشراق الإيطاليّ لم يتمّ له ذلك القدر الكبير والمهمّ من التراكم العلميّ في الموضوع، ما يجعله في مستوى أفقيّ، ومتساويًا مع الخطابات الاستشراقيّة الأخرى كافّة.

ولكن هناك حقيقة أساسيّة ثابتة وإيجابيّة تحسب لصالح الاستشراق الإيطاليّ في إطار عنايته بالسـيرة النبويّـة، وهي أنّه كان من بين السـبّاقين إلى هذا الاهتمام بحكـم عوامل كثيرة، أهمّها أنّ إيطاليا كانت ولا تزال مركزًا اسـتراتيجيًّا للديانة المسـيحيّة وحاضنة لها إلى جانب إسـبانيا الإسـلاميّة في العصر الوسيط (الأندلس) بطبيعة الحال، ثمّ بحكم الصلات الوثيقة التي كانت تجمع بين إيطاليا والدول الإسـلاميّة، وهي صلات قديمة قدم التاريخ والحضارة الإسلاميّين، ومتنوّعة تأخذ تجلّيات متعدّدة، منها ما هو اقتصاديّ وسـياسيّ، ومنها ما هو علميّ وثقافيّ؛ إذ «كانت إيطاليا أعرق أمم الغرب التي اتّصلت بالشرق الأدنى اتصالًا وثيقًا منوّعًا، ونالت الثقافة العربيّة واللغات الشرقيّة من الترجمـة والحفظ والتعليم والنشر، بفضل الفاتيكان حظًّا موفورًا موصولًا....فعنيـت جامعة بولونيا (Bologna 1076) بعلوم العرب، وجامعة نابولي (Napoli 1224) بثقافتهم، وجامعة سيينا (Sienna 1246) بآدابهم، وجامعة روما (Roma 1248-1303) ثمّ بدراسة الآثار واللغة والآداب العربيّة والألسنيّة السامية، وجامعة فلورنسا (Firenze 1321) باللغات الشرقيّة، وجامعة بادوى (Padova) باللغات السامية، والجامعة الغريغوريّة (Grego-riana 1553) باللاهوت والحقّ القانونيّ الشرقيّ والدراسات الإسلاميّة[1]».

كما تجسّـدت هذه الصلات على مستوى تأسيس المطابع للغرض ذاته، فكانت «أوّل مطبعة أنشأها الراهبان: سفا ينايم، وبامرتز في دير سوبياكو (١٤٦٤م)، ثمّ نقلاها إلى روما (١٤٦٧م)، وبدأت الطباعة في البندقيّة، وفي ميلانو (سـنة ١٤٦٩م)، وفي فلورنسـا (سـنة ١٤٧١م)، وفي ماينس حيث طبع الأب روث الدومينيكي دليل الحجّ، وفيه الأبجديّة العربيّة (سنة ١٤٨٦م)،

١. العقيقي، المستشرقون، ١: ٣٤٧.

وقبل أن يختتم القرن الخامس عشر صدر عن إيطاليا ٤٩٨٧ كتابًا، منها ٣٠٠ في فلورنسا، و٦٢٩ في ميلانو، و٩٢٥ في روما، و٢٨٣٥ في البندقية»[١].

فبدأ الاهتمام أكثر فأكثر بالإسلام دينًا وعبادة وثقافة وسلوكًا وعلمًا وحضارة، واتّخذ شكلًا أبعد تنظيمًا وأعمق انتشارًا واستمرارًا في مدن إيطاليا وكنائسها بفعل الدور الخطير للفاتيكان، فكان رجال الدين ومرجعهم الفاتيكان يومئذ يؤلّفون الطبقة المتعلّمة في أوروبا، ولا سبيل لهم إلى إرساء نهضتها إلّا على أساس من التراث الإنسانيّ الذي تمثّله الثقافة العربيّة، فتعلّموا العربيّة، ثمّ اليونانيّة، ثمّ اللغات الشرقيّة للنفوذ منها إليه، ولتخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين واليهود، ويردّون عليهم ببراهين من كتبهم أنفسهم[٢].

إذًا من خلال هذه العتبات الأساسيّة الأولى يمكن إدراك طبيعة هذا الموضوع وأهمّيّته. ومن ثمّ سنحاول في ضوء ما ذكرناه سابقًا أن نصوغ منطلقات هذه الدراسة لبناء التصوّرات والمواقف عن الموضوع، ذلك من خلال تناول البدايات الأولى المبكرة لنشأة الاستشراق الإيطاليّ في إطار اهتمامه بسيرة الرسولﷺ، مع الإشارة بشكل خاصّ إلى أنّ تاريخ الاستشراق الدينيّ الإيطاليّ قد عرف مرحلتين أساسيّتين مختلفتين إلى حدٍّ ما، هما:

مرحلة العصور الوسطى حيث اتّخذ الاستشراق مواقف عدائيّة حاقدة وماكرة من السيرة النبويّة، فاتّسمت أبحاثه وكتاباته بملامح الصراع الدينيّ والكذب والتلفيق وإخفاء الحقيقة العلميّة.

مرحلة العصر الحديث، حيث اتّخذ طابعًا معتدلًا، وخفّف مستشرقوه من غلواء خطاباتهم ومواقفهم وتصوّراتهم إزاء النصوص الدينيّة الإسلاميّة كالقرآن الكريم والسيرة النبويّة وغيرهما، بفعل تطوّر مناهج البحث وطرائق المعالجة والدرس، وانفتاحهم على التحوّلات الكبرى التي عرفتها العلوم الإنسانيّة، وذلك في إطار خلق حوار الأديان والثقافات والحضارات.

إنّ ما يهمّنا نحن في هذه الدراسة بالدرجة الأولى هو معرفة الطريقة والكيفيّة التي بواسطتها

---

١. م. ن، ١٢٠.

٢. م. ن، ١١٣-١١٤.

صاغ المستشرق الإيطاليّ معرفته بشخصيّة الرسول الكريم ﷺ في مراحل متقدّمة من تاريخ نشأة الاستشراق الدينيّ بإيطاليا، ثمّ تتبع تجلّيات هذه المعرفة وتلك التصوّرات في أعمال كتاب ومستشرقين لاحقين. وسنسعى في ضوء ذلك إلى تناول هذا الموضوع ومحاوره انطلاقًا من آراء بعض رجال الدين المسيحيّين والمستشرقين الإيطاليّين الأوائل، نظرًا لما مارسوه من تأثير كبير على تطوّر مسار الاستشراق الدينيّ بإيطاليا، وفي توجّهاته العامّة، ونظرًا لحضور أفكارهم وآرائهم في الدراسات الاستشراقيّة الأوروبيّة الأخرى المصاحبة لهم واللاحقة عليهم، وهؤلاء هم:

فيدينزو دي بافيا، وأندريا أرفابيني، وأندريا داندولو، ودانكونا (Dancone)، ودانتي أليجيري (Dante Alighieri) (١٢٦٥–١٣٢١م)، والأب دومينيك جرمانوس (Germa-nus, D.) (١٥٨٨–١٦٧٠م)، ولودفيكو ماراتشي (Marracci, L.) (١٦١٢–١٧٠٠م)، وكذا انطلاقًا من بعض آراء مستشرقين إيطاليّين معاصرين اهتمّوا بالظاهرة المحمّديّة، فكتبوا عن الإسلام عامّة وعن الرسول ﷺ خاصّة، واتّخذوا حياته أو سيرته ﷺ مادّة لدراساتهم وأبحاثهم العلميّة، أمثال: دافيد سانتيلانا (١٨٥٥–١٩٣١م)، والأمير ليوني كيتاني (Caetani Leone) (١٨٥٩–١٩٢٦)، وكارلو ألفونصو نللينو (Nallino Carlo Alfonso) (١٨٧٢–١٩٣٨م)، وميكلانجلو جويدي (Guidi Michelangelo) (١٨٨٦–١٩٤٠م) وفرانسيسكو غابريللي (١٩٠٤–١٩٩٧م) ثمّ لورافيشيا فاغليري.

كما سيتّخذ عملنا هذا منحى توثيقيًّا تاريخيًّا يعمد إلى التتبّع التقصّي والرصد، ولا يجنح إلى التحليل والمقارنة والاستنتاج، لطبيعته المنهجيّة.

أوّلًا: الاستشراق الإيطاليّ وبداية الاهتمام بالإسلام

لا يستطيع أحد مهما أوتي من معرفة وعلم واسعين بحركة الاستشراق الإيطاليّ في تناوله للظاهرة النبويّة وتجلّياتها الدينيّة والسلوكيّة... أن يجزم أو يحدّد بدقّة ووثوقيّة كبيرة تاريخ إنجاز أوّل بحث أو دراسة أو احتكاك بنصوصها من قبل الكتاب والمستشرقين واللاهوتيّين

الإيطاليّين، ولكنّه يستطيع أن يقول بنوع من الاطمئنان بأنّ هذه الاهتمامات بالسيرة النبويّة نشأت بإيطاليا مع نشوء الصراع الدينيّ العقائديّ بين المسيحيّة والإسلام، كما ترعرعت وازدهرت واشتدّ عودها مع الاحتكاك والاطلاع المباشر على النصوص الدينيّة الإسلاميّة (القرآن الكريم – السيرة النبويّة – وكتب الصحاح...). إذ كان لهذا الاطّلاع أثره الفعّال في ظهور البدايات الأولى للاستشراق الدينيّ بإيطاليا.

وللغرض نفسه تمّت أوّل طبعة لنصّ القرآن الكريم[1] باللغة العربيّة بأوروبا، وذلك بالبندقيّة[2] سنة ١٥٣٧م أو ١٥٣٨م على يد أليساندرو باغانيني (Paganini)، وهي المطبعة العربيّة التي أنشأها فرديناند دي ميديتشي دوق توسكانيا، مدعومًا من البابا غريغوار الثالث، أي أنّه جرى طبع القرآن الكريم في إيطاليا/ أوروبا، قبل أن يطبع في أيّ بلد إسلاميّ بفترة طويلة ربما تزيد عن ثلاثة قرون، وفي فترة مبكرة جدًّا من اختراع فنّ الطباعة[3].

---

١. كان الاعتقاد السائد لدى الكتّاب الإيطاليّين خاصّة والأوروبيّين عامّة في مرحلة العصور الوسطى بأنّ القرآن الكريم من تأليف الرسول الكريم محمّدﷺ، ومن إبداعه، وليس من كلام الله تعالى، ومن ثمّ فإنّ القرآن الكريم يرصد أفكار الرسولﷺ وعقيدته ومراحل حياته، وبكلّ ما يتعلّق بمساره الدينيّ والعقائديّ؛ لذا فإنّ ترجمته إلى لغات أوروبيّة تعدّ خطوة أولى وأساسيّة وحاسمة عندهم في طريق تكوين معرفة بصاحب هذا الدين. لكن للأسف رغم ذلك فقد اتّخذت الترجمة سبلًا ملتوية في غاية من الخبث والتضليل، فضاعت بذلك الحقيقة المحمّديّة في أعمالهم وكتاباتهم.

٢. بدوي، موسوعة المستشرقين، ٣٠٢ وما بعدها.

٣. التقيت بالدكتور المصريّ محمود سالم الشيخ، الباحث في فقه اللغات الرومانيّة الذي يعمل أكثر من أربعين سنة في عددٍ من الجهات العلميّة والأكاديميّة بإيطاليا، التقيت به أثناء مشاركتنا معًا في ندوة علميّة دوليّة نظّمتها جامعة فاس بالمملكة المغربيّة أيام ١٣-١٤-١٥ أبريل ٢٠١٠م في موضوع «السيرة النبويّة في الكتابات الإيطاليّة»، فذكر لي بخصوص ملابسات موضوع طبع القرآن الكريم بالبندقيّة قائلًا: «من خلال دراستي العميقة للنسخة التي اكتشفتها نووفو، هي أنّ المصحف لم يطبع بالمعنى الصحيح للكلمة، وإنّما نحن أمام بروفة طبع، على صورة أوراق مفكوكة، وليست معدّة للتجليد ولا للتوزيع. والحقيقة أنّ باغانيني كان قد وضع كلّ آماله وأمواله رهنا بنجاح مشروع الحروف الطباعيّة باللغة العربيّة، بعد أن كانت المطابع قد انتشرت في أوروبا، تطبع بالحروف اللاتينيّة، وكان لا بدّ له من التميّز بابتكار جديد يعطيه ميزة تنافسيّة في الأسواق، فكان ابتكاره للحروف العربيّة الطباعيّة وبدأ بطبع المصحف في بروفة يقوم بتسويقها في الأسواق الخارجيّة، وخاصّة في تركيا الإسلاميّة، واثقا من أنّها سوف تجد رواجًا وتحيي صناعته، مع شريكه وابنه.

وكان يمكن أن تمثّل هذه الجهود إجراء أوّليًّا في محاولة تكوين معرفة صحيحة وموضوعيّة بنصوص هذا الدين وبكتبه المقدّسة، والاطّلاع عن قرب على تعاليمه وتشريعاته لإدراك مواطن التوافق والنبوغ والوحي والعبقريّة فيه، لكنّه للأسف تمّت هذه الطبعة في ظلّ أجواء الصراع، والاستنفار، والترقب، والخوف، والعدائيّة التي تطفئ كلّ نور. ولهذا كرّست هذه الجهود ثقافة الصراع وليست ثقافة الحوار والتسامح الدينيّ والفكريّ.

يضاف إلى ذلك أنّه لم تكد تظهر الترجمة اللاتينيّة للقرآن الكريم للقسيس السويسريّ بيبلياندر[1] التي صدرت سنة ١٥٤٣م في ثلاثة مجلّدات، حتّى ظهرت أوّل ترجمة إيطاليّة له عام ١٥٤٧م على يد أندريا أريفابيني في البندقيّة، وإن كان أريفابيني يدّعي أنّه أنجز هذه الترجمة من الأصل العربيّ للقرآن الكريم، غير أنّ ترجمته ما هي إلّا نسخة عن اللاتينيّة التي نشرها بيبلياندر. ثمّ إنّ ترجمة إريفابيني كانت مصدرًا لأوّل ترجمة بالألمانيّة قام بها سلمون شفايجر (S. Schweiger)، وهو قسيس واعظ في كنيسة فراون كيرشه في نورمبرج عام ١٦١٦م. وكان قد اطّلع «في القسطنطينيّة عن طريق المصادفة على الترجمة الإيطاليّة التي قام بها أندريا أريفابيني (Andrea Arrivabene) عام ١٥٤٧م وعلى أساس من هذه الترجمة الإيطاليّة التي لم تكن ترجمة دقيقة بحال من الأحوال؛ لأنّها لم تكن معتمدة على النصّ العربيّ، بل كانت معتمدة على الترجمة اللاتينيّة الأولى التي تمت في القرن الثاني عشر، وهي ترجمة كانت قاصرة قصورًا بليغًا، وعلى أساس من هذه الترجمة الإيطاليّة المشار إليها قام شفايجر عام ١٦١٦م بإنجاز ترجمته الألمانيّة للقرآن، وهي ترجمة ثقيلة على الفهم، وقد قدم لها بفصل جدليّ للغاية يتّسم بالنزعة الهجوميّة تناول فيه بصفة

لكن الذي حدث أنّ مشروعه فشل فشلًا تامًّا، لأنّ نسخة المصحف التي خرجت من مطبعته كانت مليئة بالأخطاء التي لم يكن بوسع أحد من العملاء المفترضين أن يقبلها. أي كتاب آخر كان يمكن قبوله بالأخطاء، ولكن المصحف على نحو خاصّ لا يقبل الخطأ، ونصّه مقدّس حرفيًّا، والخطأ يحمل معنى التحريف غير المقبول...» للمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر مقاله بعنوان: «حلّ لغز مصحف باجانيني» جريدة أخبار الأدب العدد ٨٧٢ ربيع الآخر ١٤٣١هـ/ أبريل ٢٠١٠م.

١. ينحدر أليساندرو باغانيني من بريكسن (Brixen) وهي مدينة إيطاليّة صغيرة تابعة لإقليم بوزين (Bozen).

خاصّة حياة محمّد وتعاليمه»[١].

كما أنّ هناك محاولات جادّة من قبل رهبان إيطاليا الكاثوليكيّين لترجمة القرآن الكريم، يقول عبد الله عباس الندوي: «إنّ هناك رواية أخرى حول هذه الترجمة التي قام بها الرهبان باللاتينيّة تقول: إنّ بعض الرهبان من إيطاليا وألمانيا أحرقوها خائفين من تأثير القرآن في عقول الناشئة وضعاف الإيمان من الرهبان. أمّا الترجمة التي طبعت ١٥٥٣م في مدينة بازل فهي الترجمة الأخرى التي قام بها الآخرون من رهبان إيطاليا الكاثولكيّين»[٢].

وتأسيسًا عليه، فقد كانت هذه الترجمات انعكاسًا مباشرًا للجوّ العام الدينيّ والسياسيّ، والاجتماعيّ، والعلميّ، والحضاريّ الذي كان يسود إيطاليا خاصّة، وأوروبا عامّة آنذاك، والذي كانت تذكيه الحروب الصليبيّة المعلنة ضدّ المسلمين ونبيّهم الكريم؛ ولهذا جاءت استجابة لهذه السياقات، وتلك الظروف العدائيّة لكلّ ما يمتّ إلى الإسلام بصلة. فباتت كلّ مواقفهم محكومة بروح العداوة، والحقد، ومنطق التدليس، والكذب على التاريخ والإنسانيّة.

لقد احتفظت إيطاليا كباقي دول أوروبا في وعيها الجماعيّ بتلك الصور القاتمة التي صاغها الكتاب البيزنطيّون عن الرسول ﷺ من قبل، فأصبحت لدى كتّابها وكأنّها حقيقة متوارثة، ومسلّمات بديهيّة وثابتة، وقناعات لا تقبل الشكّ أو المراجعة أو التناول العلميّ الصحيح، وبذلك لم يكونوا أمناء نزيهين للأسف في نقل حقيقة الدين الإسلامي ونبيّه سيّدنا محمّد ﷺ إلى الحضارات، والأجيال المتعاقبة.

ومع ظهور ترجمة المستشرق اللاهوتيّ الإيطاليّ لودفيكو ماراتشي[٣] للقرآن الكريم، إلى اللغة

١. يتحدّث جورج سال عن هذه الترجمة بأنّ ما نشره بيبليياندر في اللاتينيّة زاعمًا بأنّها ترجمة للقرآن الكريم لا تستحقّ اسم ترجمة، فالأخطاء اللانهائيّة والحذف والإضافة والتصرّف بحرّيّة شديدة في مواضع عدّة يصعب حصرها يجعل هذه الترجمة لا تشتمل على أيّ تشابه مع الأصل. وهذه شهادة مهمّة من أحد العارفين بالدراسات الإسلاميّة في هذا المجال.

٢. زقزوق، «الرسالة المحمّديّة في المؤلّفات الغربيّة»، ٤٢٢-٤٢٣.

٣. عباس الندوي، ترجمات معاني القرآن الكريم وتطوّر فهمه عند الغرب، دعوة الحقّ، ٣٩.

اللاتينيّة –وهي الترجمة الثانية باللاتينيّة للقرآن– سنة ١٦٩٨م[١] قام دافيد نريتر بترجمة إلى الألمانيّة عام ١٧٠٣م نقلًا عن ماراتشي.

وكانت أوسع ترجمة انتشارًا نقلت عن ماراتشي هي الترجمة الإنجليزيّة التي أنجزها جورج سال (George Sale) (١٦٩٧–١٧٣٦م) ففي عام ١٧٣٤م، انتهى «جورج سيل» من ترجمته التي اعتمد فيها على نسخة عربيّة للقرآن الكريم طبعت في هامبورج عام ١٦٩٤م، وهي لا تخلو من أخطاء. ولقلّة بضاعته في العربيّة اتكأ على ترجمة «مراتشي» اللاتينيّة آنفة الذكر. يقول سير إدوارد دنسون (Sir Edward Denson Ross) في مقدّمته لترجمة معاني القرآن لجورج سيل: إنّه لا توجد ترجمة لمعاني القرآن في اللغة الأوروبيّة إلّا وهي مدينة لفضل ميراتشي، وإنّ مقدّمة ميراتشي لترجمة معاني القرآن تجمع جميع ما عرفه أهل أوروبا عن الإسلام ومحمّد والقرآن آنذاك»[٢].

لقد ظلّت هذه الترجمة طوال قرنين عمدةً لدى الباحثين الغربيّين، بل ترجمت إلى الهولنديّة والألمانيّة والفرنسيّة والروسيّة والسويديّة والبلغاريّة، بل أعيدت طباعتها أكثر من مئة وعشرين مرّة. يقول «جورج سيل» مبررًا الحاجة إلى ترجمته: من الضرورة بمكان أن نُخلِّص المخدوعين ممن تبنَّوا آراء إيجابيّة تجاه النصّ الأصليّ [للقرآن] بسبب الترجمات الجاهلة أو المنحازة التي ظهرت، وأن نمكِّن أنفسنا من كشف الدجل بشكل أكثر فاعليّة، وكأنّ تحريف المترجمين قبله لم يكن كافيًا، فاستدعى الأمر مزيدًا من الافتراء على كتاب الله عزّ وجل. هذه الروح التي دوَّن بها ترجمته»[٣].

ولهذا فإنّ ترجمة ماراتشي قد حظيت بالشهرة والذيوع في أغلب دول أوروبا آنذاك؛ لأنّه أضاف إليها بعض الاقتباسات من التفاسير المختلفة، والكتب الإسلاميّة الدينيّة التي اختيرت بعناية كبيرة من قبله، لتعطي أسوأ انطباع وأسوأ صورة عن الإسلام ونبيّه محمّدﷺ للمسيحيّين

١. يقال له لويجي ماراتشي باللغة الإيطاليّة، ولودفيج بالألمانيّة، ولويس مراتشي بالفرنسيّة، وماراكيوس باللاتينيّة. وكلّها أسماء لشخص واحد.

٢. فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ٩٧.

٣. الندوي، ترجمات معاني القرآن الكريم وتطور فهمه عند الغرب، ٣٩.

الإيطاليّين أوّلًا ثــمّ للأوربيّين ثانيًا، إذ قدّم لترجمته بجزء كامل عنونه بـ(تفنيد مزاعم القرآن)، بمعنى تفنيد مزاعم الرســول محمّدﷺ، وســوف يــأتي الحديث عن ماراتــشي بتفصيل في هذه الدراسة.

ويمكــن القــول إنّ الترجمات الأوروبيّة للقــرآن الكريم إلى ما قبل ظهــور ترجمة ماراتشي كانــت واقعة تحت تأثير الترجمــة اللاتينيّة الأولى لدير كلوني، لكنّ ترجمته اســتطاعت أن تأخذ الحظوة الأولى بعدها لقوّة مكرها، وعمق خبثها، وحقدها على الإســلام، ولأنّها وجدت هوى في نفوسهم المسيحيّين، فأشبعت فضولهم الدينيّ العقائديّ المريض المعادي للمسلمين ولنبيّهم الكريم. وقد كان مبعث هذه الترجمات أنّها وردت في إطار الحرب العدائيّة التي كانت جارية بين المسيحيّين والمسلمين آنذاك في إيطاليا، لا سيّما وأنّ الإسلام كان يمثّل في ذلك الوقت خطرًا على المسيحيّين، وكانت إسبانيا وجنوب إيطاليا أبلغ دليل على ذلك. فكانت مدوّنة أو مشروع كلوني الحلقة الأولى في إطار سلسلة المشاريع السجاليّة والعدائيّة بين العقيدتين على المستوى الفكريّ، وأصبحت تمثّل أرضيّة مناسبة لبلورة تصوّر مسيحيّ غربيّ حول الرسول محمّدﷺ لدى الغربيّين لتأسيس نشاط استشراقيّ مبكر في العصور الوسطى بإيطاليا خاصّة وباقي دول أوروبا عامّة.

ومن المؤكّد حقًّا أنّ أغلب الترجمات الأوروبيّة، والإيطاليّة منها، التي تمّت في هذه الفترات المبكــرة من تاريــخ الفكر الدينيّ بأوروبــا كانت بتوجيهات من الكنيســة؛ إذ أشرف على هذه العمليّة رجال الدين والرهبان والأساقفة من ذوي المناصب ومن ثقات المؤسّسة الكنسيّة.

وكان الهدف واضحًا ومرســومًا ســلفًا هو مجابهة هذا الدين وصاحــب هذا الدين اللذين يعــدّان خطرًا على الديانة المســيحيّة. لنســتمع إلى ما قاله العقل المدبّــر الأوّل صاحب مشروع كلوني في إذكاء نار العداوة بين المسلمين والمسيحيّين في وقت مبكر من هذا الصراع: «إنّ الجرم الذي ارتكبه محمّد لا يطلق عليه سوى تسمية الهرطقة أو الوثنيّة، وعليه ينبغي العمل ضدّ ذلك الأمر. ولكن اللاتين لا يعرفون ســوى لغاتهم، ولهذا لا يســتطيعون التعرّف على حجم الخطأ ولا يســتطيعون إغلاق الطريق أمام هذه الهرطقة. لهذا كلّه اشــتغل قلبي وفكري وأســخطني رؤيــة اللاتين، وهم غير مدركين دوافع هذا الخطر وتجاهلهم إيّاه يضعف مقاومتهم أمامه، ولا

أحد يستطيع الردّ؛ لذلك ذهبت أبحث عن متخصّصين في اللغة العربيّة، وعن طريق التوسل والنقود جعلت أولئك المتخصصين يقومون بترجمة تاريخ وأسس ديانة هذا المسكين وكتابه الذي يسمّى القرآن»[1].

والحقيقة التي يمكن أن نسجّلها هنا حول هذه الادّعاءات الواهية والمجانبة للصواب، وللتاريخ التي كوّنها الإنسان الإيطاليّ عن الرسولﷺ وأفرزتها مواقفه في مرحلة العصور الوسطى هي أنّه من غير المنطقيّ والمعقول ومن وجهة نظر علميّة اعتبار هذه الكتابات والمواقف إزاء الرسولﷺ ضمن المباحث أو الدراسات الاستشراقيّة المحضة والمتخصّصة؛ لأنّها ببساطة لا ترتكز على منهج علميّ موضوعيّ يحترم حدوده، وطرق اشتغاله، وتوجّهاته العلميّة والمنهجيّة التي تعلن عن ملامحه ومسؤوليّته، وأمانته العلميّة في البحث عن الحقيقة، وليس شيئًا غير الحقيقة إزاء الموضوع الذي يُدْرَس، لكنّها مع ذلك تمثّل البدايات أو البواكير الأولى والمؤسّسة للاهتمام بحياة الرسولﷺ خاصّة والإسلام عامّة، وخلق معرفة أوّليّة بالموضوع، رغم السياقات الظلاميّة والحاقدة التي نبتت فيها وترعرعت في تربتها؛ لأنّها «على الرغم من افتقارها إلى الموضوعيّة والعلميّة كانت الأسس التي ارتكزت عليها العديد من التفسيرات والآراء الاستشراقيّة المتأخّرة، وظلّ تأثيرها يحتلّ نصيبًا مهمًّا، على الرغم من صغر حجمه، في كتابات بعض المستشرقين في الفترات الحديثة والمعاصرة[2]؛ لأنّ الأوائل الذين عرضوا موضوع حياة الرسول الكريم من الإيطاليّين كانوا من رجال الدين والرهبان والقساوسة.

معنى ذلك أنّ الاهتمام بترجمة القرآن الكريم كان اهتمامًا بمعرفة الرسول محمّدﷺ، صاحب هذا الدين الجديد -كما ذكرنا آنفًا-. كما اعتقدوا بأنّ هذه الترجمات للقرآن الكريم إنّما هي طريق موصل إلى القبض على معطيات ترتبط بحياة الرسول الكريم وبسيرته، وأنّها بمثابة منطلقات أو بدايات لتشكيل صورة عنهﷺ أيضًا؛ ولهذا كانوا يعتقدون بأنّ القرآن الكريم من تأليف الرسولﷺ، فيقولون: «كتاب محمّد»، «قرآن محمّد».

ولذلك واعتمادًا على ما أشرنا إليه من معطيات وحقائق ترتبط بالموضوع، فإنّه «من الممكن

1. Arberry, The Koran Interpreted, 26.

٢. موقع الاستشراق وترجمة القرآن الكريم، دراسات وأخبار حول ترجمات معاني القرآن الكريم.

القول إنّ كتابات وإسهامات هذه المرحلة اتّسمت بسمات عدّة، منها:

– التطرّف الشديد في عرض الآراء والأفكار والتفسيرات المعادية للرسول الكريم والقرآن الكريم والدعوة الإسلاميّة.

– الجهل البيّن بكثير من المظان العربيّة الإسلاميّة عن هذا الموضوع، ولا سيّما الجهل بكتب السيرة والحديث الشريف...

– غلبة الطابع الأسطوريّ والقصص الخياليّ (غير الواقعيّ) على معظم تلك الإسهامات، لعلّه من الصحيح القول بأنّ بعض هؤلاء الكتّاب قد اعتمد في معلوماته على عدد ضئيل من المراجع العربيّة، غير أنّ هذا النفر القليل لم يكن ثقة في طرحه الروايات الإسلاميّة، فحرف هذه المعلومات وحورها وكتبها بصيغ وأشكال بعيدة كل البعد عن الحقيقة»[١].

فأضحت هذه السمات للأسف الشديد قاسمًا مشتركًا بين الكتّاب والمفكّرين ورجال الدين الإيطاليّين آنذاك الذين جعلوا من موضوع حياة الرسول وسيرته حقلًا لأبحاثهم ودراساتهم، وكأنّهم وحّدوا خططهم ومواقفهم ورؤاهم العدوانيّة والحاقدة في الحرب وفي الفكر وفي المعتقد.

ثانيًا: بواكير البحث في السيرة وكوامن الرغبة في إخفاء الحقيقة المحمّديّة وطمسها أو تزييفها

لكن تاريخ البحث والكتابة في السيرة النبويّة عند الكتّاب الإيطاليّين لم يأخذ ملامحه أو شكله الرسميّ إلّا بظهور كبار رجال الدين من قساوسة الكنسيّة ورهبانها الذين عملوا جادّين على اختراق المنظومة الإسلاميّة من الداخل، في محاولتهم لصياغة أخبار ومعطيات كاذبة ملفّقة عن الرسول ﷺ كخلفيّة معرفيّة ولاهوتيّة، وذلك على هامش ترجمتهم للقرآن الكريم إلى اللغة الإيطاليّة.

وربما كانت أهمّ شخصيّة دينيّة يبرز اسمها منذ البداية في مرحلة العصور الوسطى هي ظهور شخصيّة راهب إيطاليّ يُدعى فيدينرو دي بافيا. هذه الشخصيّة المسيحيّة لا يمكن إغفال

١. ناجي، تطوّر الاستشراق في دراسة التراث العربي، ٨٤.

دورها الخطير في مسيرة الاستشراق الإيطاليّ في مراحله المبكرة، بوصفها لسانًا معبّرًا عن الرؤى والتصوّرات والمواقف العدوانيّة التي كانت سائدة في عصرها، وبوصفها ناقلة أيضًا لنبض الواقع الدينيّ الذي بات رائجًا ومنتشرًا بإيطاليا تجاه شخصيّة النبيّ المصطفى الكريم ﷺ، فقد «جاء إلى بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السابع الهجريّ/ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلاديّ، فقد كتب وصفًا مختصرًا مختلقًا لتشويه صورة النبيّ ﷺ عند القرّاء الغربيّين، وممّا قاله: «إنّ محمّدًا جمع حوله عبيدًا آبقين ورجالًا مؤذين مرتشين ومضطهدين للآخرين من أصناف مختلفة، وعندما أطاعوه وأصبح أميرهم، أرسلهم إلى غابة ذات طرق فرعيّة وإلى قمم الجبال، وأخذوا يغيرون على الطرق التي يتردّد عليها المسافرون فيسلبون الناس، وينهبون بضائعهم ويقتلون كلّ من يُبدي مقاومة، وحلّ الخوف من محمّد وأصحابه بجميع الناس الذين يقطنون بتلك البلاد»[١].

وهذا الراهب الإيطالي فيدينزو دي بافيا أحد الكتّاب الغربيّين الذين تلقّفوا القصّة المختلَقة على النبيّ ﷺ وزينب بنت جحش رضي الله عنها أيضًا، التي اخترعها يوحنّا الدمشقيّ وصاغوها بشكل داعر، وممّا قاله فيدينزو في هذا السياق:

«كان هناك رجل معروف يُدعى سايدوس أي زيد، وكان له زوجة تُدعى سيبيب أي زينب، كانت من أجمل النساء اللواتي عشن على الأرض في أيّامها، فسمع محمّد بشهرة جمالها، واشتعل بالرغبة فيها، وأراد أن يراها، فجاء إلى منزل المرأة في غياب زوجها، وسأل عن زوجها، فقال له: يا رسول الله، ماذا تريد؟ لماذا أنت هنا؟ زوجي ذهب إلى الخارج للعمل. فلمّا عاد الزوج إلى بيته، وكان عارفًا بقدوم الرسول. فقال لزوجته: هل كان رسول الله هنا؟ فأجابته: نعم، كان هنا. فقال لها: رأى وجهك؟ فأجابته: نعم، رآه وقد سهّرني أيضًا وقتًا طويلًا، فقال لها: أنا لا أستطيع أن أعيش معك وقتًا أطول من هذا»[٢].

أي إسفاف أخلاقيّ يصدر عن هذا الراهب في حقّ النبيّ المصطفى محمّد ﷺ الذي وصفه

١. ناجي، تطوّر الاستشراق في دراسة التراث العربي، ٨٥-٨٦.

٢. حسيني معدى، الرسول ﷺ في عيون غربيّة منصفة، ٣٩.

الله تعالى بأنّه «على خلق عظيم»، وأنّه قد أدّبه ربّه سبحانه وتعالى فأحسن تأديبه، فنزّهه عن هذه الموبقات وعن مثل هذا الفجور المادّي الحيوانيّ. يقول ريتشارد سويثرن في تاريخه الموجز: «إنّ الذي انصقل كثيرًا وازداد تعقيدًا هو الجهل الغربيّ، وليس المعرفة الصحيحة بالإسلام، أدّى هذا الجهل بالإسلام إلى التفكير بضرورة القيام بعمل ما بشأن الإسلام، والواقع أن عدم الإنصاف يتمثّل في التصوّر المسيحيّ للمسلمين بوصفهم كفّارًا ووثنيّين يعبدون دينًا زائفًا، ولمحمّدﷺ بوصفه ساحرًا، بل نظر إلى النبيّﷺ على أنّه كاردينال في كنيسة روما. فلمّا أحبطت آماله في أن يصير بابا ثار وفرّ إلى الجزيرة العربيّة، حيث أنشأ كنيسة خاصّة به»[١].

التوجّه العدوانيّ يطبع موقف مستشرق إيطاليّ آخر هو أندريا داندلو «الذي زعم بأنّ محمّدًا عدّ نفسه كالمسيح ليفوز بمساعدة اليهود والمسيحيّين، وقد زاد على غيره بزعمه بأنّ الذي ساعد محمّدًا هو الراهب النسطوريّ سوجيوس الذي أراد بمساعدته أن يحارب الكنيسة، وهكذا كان محمّدﷺ في عرف أولئك ساحرًا هدم الكنيسة في إفريقيا وفي الشرق، عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه (حسب زعمهم) بأنّه أباح الاتصالات الجنسيّة، ولقد قدّر لهذه الصور أن تزداد زخرفًا في الكثير من الأعمال الأدبيّة، وكان في عرف تلك الكتابات أنّ محمّدًاﷺ هو صنم المسلمين الرئيسيّ»[٢].

وكان معظم الشعراء الجوّالين يعدّونه كبير آلهة المسلمين، وكانت تماثيله (حسب أقوالهم) تصنع من مواد نفيسة ذات أحجام هائلة، وقد ظلّ هذا الاتجاه الخرافيّ في وصف سيرة المصطفىﷺ حيًّا في إيطاليا وسائر بلدان أوروبا حتّى القرن السابع عشر وما بعده، ولا يزال هذا الاتجاه للأسف حيًّا في العصر الحاضر في كتابات بعض المستشرقين عن الإسلام ونبيّه، في إيطاليا العصر الحديث، وهو قليل لحسن الحظّ، ففي المؤتمر الإسلاميّ المسيحيّ الثاني المنعقد في طليطلة بإسبانيا سنة ١٩٧٧م، وفي البحث الذي قدّمه إلى المؤتمر الأب جي هارتي حول مواقف معاصرة من نبوة محمّد وسيرته سجّل تفسيرًا غريبًا لعدم الاعتراف بنبوّة محمّد منسوبًا إلى راهب آخر هو الأب جاك جونييه يقول فيه: «إنّه لا يمكن عدّ محمّد نبيًّا، لأنّ ذلك يعني بالنسبة إلى

---

١. م. ن، ٣٩.

٢. ساري، صورة العرب في الصحافة البريطانية «دراسة اجتماعية للثبات والتغير في مجمل الصورة»، ٢٥-٢٦.

المسيحيّين الاعتراف بإنجيل جديد يحلّ محلّ إنجيل المسيح، وإنّ الاعتراف بمحمّد نبيًّا ودراسة سيرته، يعني الاعتراف بكلّ ما يتضمّنه القرآن، ومن ثمّ فإنّ عدّ محمّد خاتم المرسلين وخاتم الأديان لا يعدّ سوى إلغاء لإنجيل المسيح»[١].

وقد اعتمد داندلو في بناء هذا الموقف العدائيّ ضدّ الرسول ﷺ وسيرته على الأساطير البيزنطيّة. يقول المستشرق الألمانيّ غوستاف بفانموللر بهذا الصدد في كتابه (سيرة الرسول في تصوّرات الغربيّين): «... وفي العرض الذي قدّمه لنا أندريا داندلو الفينيسي تتجمّع عناصر الأساطير البيزنطيّة عن محمّد مع الاختراعات التي يجب أن توضع على حساب خيال المحاربين الصليبيّين وعلى حساب قادتهم الروحيّين»[٢].

ولا شكّ في أنّ هذه الخلفيّات العقائديّة المسيحيّة قد انعكست سلبًا على قراءاتهم لنصوص السيرة النبويّة، حيث اتّخذت منحى الصراع والعداء، فلم تسمح بصياغة معرفة صحيحة إيجابيّة عن الإسلام عمومًا وعن السيرة على وجه الخصوص. ومن ثمّ فتحت المجال لمجموعة من الخرافات والأفكار الخياليّة الظلاميّة والعدوانيّة إزاء الرسول ﷺ بالتسرّب إلى الخطاب الاستشراقيّ الدينيّ الإيطاليّ، فأثّرت في أحكامه ومواقفه ونتائج أبحاثه. كما أثّرت في المخيال والذاكرة الجماعيّة للإيطاليّين، فترتّب عن ذلك أن ضاعت الحقيقة الإسلاميّة الناصعة، وضاعت معها كلّ معرفة جادّة يمكن أن يكوّنها مسيحيّ يطمح إلى الاطّلاع على هذا الدين ومعرفة أخبار رسوله ﷺ، لاتّخاذ مواقف وتصوّرات إيجابيّة موضوعيّة عن الرسول الكريم ﷺ.

واللافت للانتباه أنّ هذه الكتابات التي أنتجها الكتّاب الإيطاليّون في هذه المرحلة كانت عاملًا أساسًا ومحركًا مباشرًا في تغذية الصراع الصليبيّ ضدّ الرسول ﷺ والإسلام، فركّزوا بشكل مَرَضيّ مبالغ فيه على بعض القصص التاريخيّة العابرة، وشدّدوا عليها وألحّوا على ترديدها في كلّ مناسبة ذكر فيها موضوع سيرة رسول المصطفى ﷺ أمثال قصة الناسك بحيرى، وعلاقة ورقة بن نوفل بالرسول ﷺ؛ لأنّها من القصص التي يُراد من وراء إذاعتها في الناس إظهار التأثير المسيحيّ في الرسالة المحمّديّة ودعوتها، ومن ثمّ انطلاقًا من هذه العلاقات المؤثّرة فإنّ نبيّ

١. الخيري، «صورة الرسول ﷺ في الغرب، خرافات وأباطيل».

٢. م. ن.

الإســلام -في تصوّراتهم- لم يأت بشيء جديد سوى أنّه أعاد تكرار الأفكار المسيحيّة وإنتاجها بشكل مبتسر ومشوّه ومغلوط ومحرّف، وهذا كلّه مجانب للحقيقة وكذب وبهتان.

يرى المستشرق الإيطاليّ المعاصر فرانسيسكو غابرييللي في كتابه (محمّد والفتوحات الإسلاميّة) بأنّ السبب الرئيسيّ الذي دعا أولئك الكتّاب في العصور الوسطى أن يأخذوا مثل هذا الموقف السـيّئ والمعادي للإسلام هو أنّ المسـيحيّة رأت في نجاح دعوة الرسـول محمّدﷺ وانتشارها بوصفها عقيدة منافسـة وعدوّة بسـبب سرعة نموّها وانتشارها، وهذا النموّ والانتشار يحاصر حدودها ويسلب أراضيها وأملاكها، ومن ضمنها مكان ولادة المسيح نفسه. فهذا السبب ظّل موروثًا في شعور الغرب إزاء الإسلام ونبيّه[1].

فتمّ في ظلّ هذا الوضع إعادة إنتاج التصوّرات والأفكار المسـتبطنة سلفًا في ذهنيّة الإيطاليّ التي كوّنها البيزنطيّون ضدّ الإسلام ورسولهﷺ، وكلّها عارية من الصحّة والحقيقة، فأضحت شـبكة من البديهيّات والمسـلّمات الثابتة المُطْمَأَنّ إلى مكوّناتها عند المسيحيّ الإيطاليّ الذي يريد أن يبحث عن حقيقة محمّدﷺ ودينه من خلال أخباره وسيرته العَطِرة.

والجديـر بالذكر أنّ ظاهـرة التعصّب والعداء الدينيّين ضدّ سـيّدنا محمّـدﷺ قد لازمت الاسـتشراق الإيطاليّ عبر عصوره الوسـطى والنهضـة، وإن كانت هذه الظاهـرة تختلف قوّة وضعفًا، شدّة ولينًا عند هذا المستشرق أو ذاك حسب ما يحمله من مواقف قد تبتعد عن الصورة النمطيّة المستوحاة من الأساطير البيزنطيّة.

فمنذ أن كتب تيوفانس البيزنطيّ عن السيرة النبويّة ظهر اتّجاه بين عدد من الإيطاليّين يأخذ بهـذه الأفكار مـن دون تمحيص أو نقد أو إعمال النظـر والمنطق. وغالبًا مـا كانت تخالط هذه الصورة العوامل السلبيّة الجديدة التي يكوّنها المستشرق الإيطالي من خلال عصره. فهناك أفكار مسـتبطنة سـلفًا عن الرسـولﷺ، وهناك الواقع الدينيّ الكنسيّ الذي يذكيها ويزيدها تأجّجًا واشتعالًا واستمرارًا ورسوخًا في ذهنيّة المسيحيّين بإيطاليا على حدّ سواء.

إذن هناك سـلطة الأفكار، وسـلطة الصور النمطيّة الثابتة السـائدة التـي تحكم توجّهات

١. يغانمولر، سيرة الرسول في تصوّرات الغربيّين، ١١٤.

الاستشراق الإيطاليّ ومنطلقاته منذ البدايات الأولى لنشأته، التي استقرّت في لاوعي هؤلاء المستشرقين كأنّها من المسلّمات الضمنيّة الراسخة التي لا تناقش أو تراجع أو يعاد فيها النظر لمحاولة تفكيكها، وإعادة رسم خطوطها بشكل مقبول استنادًا إلى المصادر والمنابع الأساسيّة للسيرة.

وبالطبع لم يكن أندريا داندلو الإيطاليّ وحده حاملًا لهذه السموم القاتلة والخرافات والأفكار الشيطانيّة في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الاستشراق الدينيّ الإيطاليّ، بل انضافت إليه شخصيّة أخرى أسهمت أيضًا في تكريس هذه البدع الظلاميّة والعدوانيّة، وهي شخصيّة ألساندرو دانكونا، إذ يقدّم لنا في حديثه عن سيرة المصطفىﷺ بحثًا بعنوان: (أسطورة محمّد في الغرب) (im Occidenta La leggenda di Maomatto) عرض فيه بحوث وكتابات كلّ من جيوبرت النوجيني، وهيلدبرت الصوري، ويعقوب الفيتري، وفنسنت البوفوي، وغيرهم. وهي كتابات احتوت الأضاليل، والأباطيل والهجوم الحاد على القرآن الكريم الذي ترجم ترجمة مشوّهة جدًّا، واحتوت على هجمات حاقدة ووضيعة على الرسول الكريمﷺ وعلى الإسلام. هذا العرض السريع يعدّ سببًا في أن يكون متوافقًا مع استهلال البحث بأنّ الإسلام والغرب إنّما يؤشّر إلى جدليّة بين نقيضين متصارعين[١].

ويعدّ المستشرق الإيطاليّ دانكونا هذا من بين الأوائل الذين نادوا بهذه الأفكار البيزنطيّة المتطرّفة والمعادية في كتابته باللغة الإيطاليّة الموسوعة السالفة الذكر (أسطورة محمّد في الغرب).

كما تمثّل بحوثه[٢] تكملة ممتازة لعمل بروتس، وقد قادته دراساته المقارنة في الآداب الرومانيّة إلى طرح سؤال حول نوع المعرفة التي كانت لدى القرون المختلفة عن سيرة محمّدﷺ. وعلى أساس من اطّلاعه الشامل رسم لنا دانكونا صورة لأسطورة محمّد في العصر الوسيط، تلك الصورة التي عرض المستشرق البلجيكيّ شوفان[٣] بعض خطوطها ببراعة فائقة في مؤلَّفه

١. غبريللي، محمّد والفتوحات الإسلاميّة، ٣٥.

٢. ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربيّ، ٨٧.

٣. فيكتور شوفان (Victor Chauvin) (١٨٤٤-١٩١٣م) مستشرق بلجيكيّ معاصر تخرّج من جامعة ليبج، عين سنة

البيبليوغـرافيّ؛ إذ يتناول دانكونا على وجه الخصوص التأثيرات المسـيحيّة على محمّد (الراهب بحـيرى) والأخبار المختلفة حول وفاة محمّـد، ويبيّن الوحدة المميّزة لهذه الأسـاطير من زمن المؤرّخ البيزنطيّ تيوفانس، وطبقًا لهذه الأساطير يظهر محمّد على أنّه زنديق، وأنّه أريوس جديد أسـوأ من أريوس الأوّل. ويبين دانكونـا بعد ذلك كيف أن جزءًا من «أسـطورة محمّد» ذلك الذي يتّصل بأصل محمّد وعلاقاته بالمسيحيّة واليهوديّة يبتعد قليلًا عن الحقيقة التاريخيّة. ولكن بمرور الزمن تبتعد الأسطورة بصفة متزايدة باستمرار عن الحقيقة التاريخيّة ويصبح محمّد مشابهًا لنيكولاس وبلاجيوس[1].

والواقع أنّ هذه الحملة الفكريّة والدينيّة ضدّ الإسلام والرسول محمّدﷺ بدأت قبل الحروب الصليبيّة بكثير، بدأت في زمن القديس يوحنّا الدمشـقيّ (٥٥-١٣١هـ/ ٦٧٥-٧٤٩م) الذي عدّ الإسـلام مذهبًا منشـقًّا عن الديانة الصحيحة، فهو بهذا المعنى ليس إلّا زندقة خارجة عن المسـيحيّة. أمّا النبي محمّدﷺ فهو لم يكن مرسـلًا -حسـب ادّعائه- ولكن مبتدعًا جاء بكتاب موضوع مختلق، ساعده فيه بعض الرهبان المنشقّين عن الكنيسة.

ويوحنّا الدمشـقيّ هـذا من النصارى الشرقيّين، من بلاد الشـام، ولـد وعاش في العصر الأمـوي، وتخصّـص في العقيدة واللاهوت المسـيحيّين، فألّف أعمالًا كثـيرة في الموضوع، من ضمّنها كتاب كتبه باليونانيّة بعنوان «الهرطقات»، فأفرد فيه فصلًا عن الإسلام أطلق عليه اسم «هرطقة الإسماعيليّين»، ويقصد بالإسماعيليّين العرب من أبناء إسماعيل بن إبراهيمعليه السلام، وهذا الفصل شديد الطعن اتّهم فيه يوحنّا العرب بالهرطقة والضلال، وزعم أن محمّدًاﷺ كان رسولًا

١٨٧٢ أسـتاذًا لكرسيّ الدراسات الشرقيّة في جامعة لوتس. إنتاجه الرئيسيّ في مجال العناية بالإسلام والسيرة النبويّة هوفهرست للمؤلّفات العربيّة، والمتعلّقة بالعرب التي نشرت في أوروبا المسيحيّة من ١٨١٠م إلى ١٨٨٥م (Bibliogra-phie des Ouvrages Arabes ou Relatifs aux arabes) وقد أراد أن يكمل كتاب شنورر (Schnurrer)، وعنوانه: (المكتبة العربيّة) (Biblioteca Arabica)، ويقدّم لنا شوفان في كتابه هذا فهرسًا منفصلًا للكتابات التي صدرت حول سيدنا محمّدﷺ، وذلك في الجزء التاسع من فهرسته.

١. يرجـع في ذلـك إلى البحث الذي نشره دانكونـا في العدد رقم ١٣ من المجلّـة التاريخيّة لـلآداب الإيطاليّة، بعنوان: (أسطورة محمّد في الغرب) من ص١٩٩ إلى ٢٨١، عام ١٨٨٩م.

زائفًا ادّعى النبوّة زمن الإمبراطور هرقل، بعد أن قرأ العهد القديم والجديد، وتعلّم من راهب أريوسي، فتظاهر بالتقوى حتّى استمال العرب إليه، وأخبرهم أنّه تلقّى كتابًا من السماء، وقدّم فيه تلك الشرائع المضحكة على حدّ قوله التي تسمّى بالإسلام. ثمّ ألصق بنبيّ الإسلام جملة من الاتّهامات الرخيصة الملفّقة التي هو منها براء. وكان هدفه من ذلك التشويه تحصين النصارى من أهل الذمّة والحيلولة بينهم وبين اعتناق الإسلام حين رأى تسامح المسلمين مع أهل الذمّة، ودخول كثير من النصارى في الإسلام، فلم يجد وسيلة لتثبيت النصارى على دينهم سوى اتّهام الإسلام بالهرطقة وتشويه سيرة النبيّ عليه السلام، لتكون صورته في نظر النصارى صورة كريهة حتى لا يُقبِلوا على اعتناق الإسلام[1].

فشكّل هذا الكتاب المادّة الأساس التي استقى منها أغلب الكتّاب الإيطاليّين أفكارهم وادّعاءاتهم وزيفهم.

لقد كان هؤلاء المستشرقون الإيطاليّون متعصّبين لمسيحيّتهم، يستمدّون معلوماتهم من أوامر الكنيسة وتوصياتها، في طاعة عمياء ومن دون إعمال للمنطق وللعقل، ومن دون الميل إلى الحقيقة التي تكاد تلمس باليد لوضوحها وقربها ونصاعتها. ممّا يبرهن عن مكر خادع أو جهل خطير بمجريات السيرة وحقائقها.

هكذا استعملوا خططًا مبيّتة تهدف إلى تشويه صورة الرسول عليه السلام، والتشكيك في مصداقيّة رسالته وتعاليمه السمحاء، والنيل من شخصه، والطعن في سيرته ونعته بالبربريّة والوحشيّة. فانتقدوا الروايات التي تؤرّخ لحياته ﷺ، واعتمدوا -عن قصد وخبث- الأحاديث الضعيفة وغير الصحيحة، والحكايات التاريخيّة الملفّقة لاستبعاد القول بنبوّته وإنكار تلقّيه الوحي الربّانيّ، وإنّما الذي كان يقع له من علامات نزول الوحي ما هو إلّا حالات نفسيّة شاذّة أو نوبات الصرع، وهي أفكار شيطانيّة سادت في كلّ الخطابات الاستشراقيّة الأوروبيّة، ولم يسلم منها للأسف أيّ خطاب استشراقيّ أوروبيّ على حدّ سواء.

«وقد كان الكتّاب البيزنطيّون، وبوجه خاصّ ثيوفانس (Theophanes) هم أوّل من أذاع

١. بفانموللر، سيرة الرسول في تصوّرات الغربيّين، ١١٥-١١٧.

في الغرب أسطورة «الصرع»، فقد كانوا المصدر الوحيد الذي تلقّى منه الغرب معلوماته الأولى عن الإسلام، وإليهم ترجع أغلب الأساطير التي شاعت في الغرب حول محمّدﷺ في العصور الوسطى، ويعترف المستشرقون أنفسهم بأنّ البيزنطيّين كانوا مصدرًا غير موثوق به فيما يتعلّق بالإسلام»[1].

ولا بدّ من أن يعود هذا الجهل التامّ وسوء التقدير للإسلام -رغم الاختلاط الكثير المباشر- إلى حدّ ما، إلّا أن التعرّف الأوّل على الإسلام قد تمّ عن طريق وساطة لا يوثق بها إلّا قليلًا. أعني عن طريق البيزنطيّين... وبعد ذلك قدّمت الحملات الصليبيّة دافعًا جديدًا، ومن هنا اتّخذت صورة محمّد باستمرار لونًا أشنع من ذي قبل، وعرضت باستمرار بصورة أكثر فظاعة[2] بل امتدّ بهم العنت والتضليل إلى أن عدّ بعضهم القرآن أنّه من تأليف سيدنا محمّدﷺ، وأنّ تعاليمه وتشريعاته منقولة عن كتب العهد القديم والعهد الجديد، وأنّه مزيج ملفق من تعاليم اليهوديّة والمسيحيّة، وهذه نغمة كان يردّدها أغلب مستشرقي أوروبا آنذاك على حد سواء، الإيطاليّون وغير الإيطاليّين.

والحقّ أنّ القرون الثلاثة التي تلت عصر النهضة قد شهدت حملة دينيّة عدائيّة واسعة بإيطاليا، فقد كانت التغيّرات السياسيّة والدينيّة تعصف بالبقيّة الباقية من أفكار المناصفة الدينيّة العادلة بين الإسلام والمسيحيّة، مع احترام شخصيّة النبيّﷺ، حيث أعيد تشكيل الفكر الدينيّ المسيحيّ على وفق تصوّرات كنسيّة تقف موقف العداء من شخص الرسولﷺ وإنجازاته الدينيّة والإنسانيّة.

ويبدو أنّ ما جاء به هؤلاء الكتّاب البيزنطيّين ومن لفّ لفّهم من الكتّاب الإيطاليّين الأوائل قد أثّر كثيرًا فيما بعد في الفكر الإيطاليّ المرتبط بالإبداع الأدبيّ والفنّيّ الجماليّ، حيث تمّ الاعتماد عليها بشكل خطير، ومن دون إعمال النظر والعقل، وكأنّها الحقيقة المطلقة التي لا تخضع لنقد أو تمحيص أو مراجعة، حتى بعد أن تطوّرت المعرفة الإنسانيّة، واتّسع الأفق الفكريّ والعلميّ

١. حسيني معدى، الرسولﷺ في عيون غربية منصفة، ٢٢.

٢. من ص٩٠، الهامش رقم ١.

والثقافيّ والحضاريّ للإيطاليّين خاصّة والأوروبيّين عامّة. إذ استمر تأثيرها السلبيّ يظهر في أعمال مبدعين كبار كدانتي أليجيري، وغيوتودي باندولي على سبيل المثال.

نموذج دانتي أو خطوة في اتّجاه نقل العداء إلى دائرة الأدب والفنّ

لا يخفى على أحد الدور السلبيّ الحاسم الذي لعبه دانتي في عمليّة تقديم حياة الرسول إلى الثقافة الإيطاليّة والديانة المسيحيّة، ولسنا نبالغ إذا قلنا إنّ موقفه هذا قد أسهم بشكلٍ خطير -نظرًا لشهرته وعلوّ كعبه في الآداب اللاتينيّة- في ترسيخ الأفكار والاعتقادات الخاطئة السلبيّة عن الرسول ﷺ.

ويعدّ دانتي أليجيري (١٢٦٥-١٣٢١م) من أعظم شعراء إيطاليا، وأحد أعمدة حركة النهضة الأوروبيّة في الآداب، خُلّد اسمه بملحمته الشعريّة العظيمة «الكوميديا الإلهيّة».

صوّر دانتي الرسول ﷺ في الكوميديا الإلهيّة تصويرًا حاقدًا، وقد ألقي به في الدرك الثامن والعشرين من جهنّم، وقد شُطر إلى نصفين من رأسه إلى منتصفه، وصوّره، وهو ينهش بيديه في جسمه، عقابًا له على ما اقترف من آثام، وما سبّبه من انشقاقات دينيّة وسياسيّة وزرع الفتن والانقسامات؛ ولأنّه في رأيه تجسيد كامل للروح الشرّيرة، حيث قدّم أوصافًا سخيفة وسخر من النبيّ الكريم، وصوّره تصويرًا بذيئًا حاقدًا، وقد كانت أمارات الحقد والكراهية بادية في كلّ سطر كتبه في كوميديّته عن الرسول ﷺ. وقد كان من الشائع تصوير النبيّ محمّد ﷺ على أنّ الشياطين تعذبه في الجحيم، وأنّه وضع في المكان المخصّص لمن سبّب الانشقاق. وبالتحديد في مكان من يزرع الشقاق الدينيّ، وكانت إحدى الادّعاءات التي اتّهم بها النبيّ أنّه كان كاذبًا منتحلًا نشر تعاليم علم أنّها كاذبة من أجل إرضاء شهواته. والذي يقرأ كتابه هذا يجده مملوءًا بمثل هذه الادّعاءات الواهية والأكاذيب والافتراءات الممزوجة بكثير من القصص الخياليّة التي نعت بها الرسول الكريم.

لقد عكس دانتي إذًا في «الكوميديا الإلهيّة» موقفًا عدائيًّا من الإسلام والنبي محمّد ﷺ، مكرّسًا صورة الدين المسيحيّ «الحقّ»، عادًّا الإسلام «كفرًا» وهرطقة، وهو أوّل من قارن صورة

القدّيس فرانسوا الأسيزي «المؤمن» الحقيقيّ، وصورة السلطان المسلم «المتعجرف» والكافر... وهذا الموقف هو نتيجة مباشرة لفشل آخر الحملات الصليبيّة على الشرق الإسلاميّ التي تمت في زمن شباب دانتي. إنّ تأثير دانتي على نشوء الثقافة القوميّة الإيطاليّة، وعلى منظومة الفكر الأوروبيّ للنهضة شمل أيضًا تأثيره على مجمل فنّاني عصره في علاقته بالإسلام دينًا وفلسفة. وتأثير دانتي والكوميديا الإلهيّة لم يفقد وزنه حتّى القرن التاسع عشر - إذ تعدّ الكوميديا الإلهيّة أحد المصادر الأساسيّة التي لجأ إليها الرومانسيّون بوصفها معينًا فنّيًّا وإبداعيًّا، ولا سيّما أن ترجمتها إلى اللغة الفرنسيّة قد ظهرت في فرنسا عام ١٨١٣م، أي إبّان فترة الحماس لدراسة تاريخ القرون الوسطى المسيحيّ والأوروبيّ مع تطوّر علم التاريخ في فرنسا آنذاك[١].

يقول الدكتور محمّد إبراهيم الفيّومي في السياق نفسه: «كان غيوتودي باندوني، رائد إظهار الموتيف الشرق الإسلاميّ في فنّ التصوير الأوروبيّ، وهو معاصر دانتي ومؤسّس النهضة في فنّ التصوير الإيطاليّ والأوروبيّ بشكل عام، والذي ارتبطت باسمه إنجازات إبداعيّة شكّلت منعطفًا تاريخيًّا في تطوّر الصورة التشكيليّة الأوروبيّة وتقنيّتها، فمنذ بداية حياته الفنّيّة أدخل صورة الشرق المسلم في بنية اللوحة التاريخيّة في فنّ التصوير على الجدران، وفي جداريّاته التي زيّنت كاتدرائيّة كابيلا باردي في سانتاكروتشية (فلورنسا) عكس غيوتو روح العصر التي ميّزت الثقافة الإيطاليّة في القرن الرابع عشر، والقائمة على مقوّمات الأيديولوجيّة المتزمّتة لخضوعها المباشر لسلطة الكنيسة وسياستها وللإقطاع، وقد صوّر في حينها فصولًا من حياة القدّيس فرانسوا الأسيزي الذي شارك في الحملة الصليبيّة الخامسة، وزار دمياط، وكما تروي الأسطورة الشعبيّة المسيحيّة، فإنّه قابل السلطان الكامل لإقناعه باعتناق الدين المسيحيّ، وبهذه الجداريذات كرّس غيوتو الصورة النقديّة العدائيّة للإسلام التي بدأها دانتي في الفكرة»[٢].

كما اتّهم دانتي النبيّ ﷺ بأنّه داعية الانحلال الجنسيّ في كتابه (الكوميديا الإلهيّة-الجحيم) فيقول: «موميتو -أي محمّد- من ناشري الفضيحة والفتنة»، ثمّ يسترسل في وصفه مجسّدًا

١. حسيني معدى، الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، ١١٣.

٢. الفيومي، الاستشراق في ميزان الفكر الإسلاميّ، ٣٢-٣٣.

النبيّ ﷺ في تركيب سلالي متصلّب من الشرور، «موميتو إلى الأبد يقطعه الشيطان في جهنّم إلى نصفين من ذقنه إلى دُبره، مثل برميل تمزّق أضلاعه» لنشره الشهوانيّة المقرفة[١].

يقول الدكتور حسن عثمان مترجم الكوميديا إلى العربيّة في تعقيبه على الأنشودة الثامنة والعشرين إنّه قد حذف منها أبياتًا وجدها غير جديرة بالترجمة، وردت عن النبيّ محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد أخطأ دانتي في ذلك خطأ جسيمًا، حيث تأثّر بما كان سائدًا في عصره، بين العامّة أو في المؤلّفات عن الرسول العظيم، بحيث لم يستطع أهل الغرب وقتئذ تقدير رسالة الإسلام الحقّة وفهم حكمته الإلهيّة[٢].

واللافت للانتباه أنّ بعض الكتب والمؤلّفات القادمة من إسبانيا الإسلاميّة في العصر الوسيط التي كانت تتعلّق بموضوع السيرة النبويّة، ولا سيّما حادث «إسراء الرسول ﷺ ومعراجه»، وقد ترجمت فورًا إلى إيطاليا، فعلى أساس الترجمة الأولى الإسبانيّة للكتاب (معراج محمّد) قام مترجم إيطاليّ كان يعمل رئيسًا لسجلّات ألفونسو العاشر وكاتبًا له (بوينا فينتورا دي سينا) بترجمته إلى اللغتين الفرنسيّة واللاتينيّة...، لكن يبدو أنّ السبب الحاسم في ترجمة هذه القصّة المليئة بالعناصر الأسطوريّة كان كما ورد في المقدّمة اللاتينيّة التي كتبها بوينا فينتورا دي سينا «كي يعرف الناس حياة محمّد وتعاليمه وما فيها من مبالغات خرافيّة، فيثبت إيمانهم وتمسّكهم بالمبادئ والحقائق المسيحيّة»[٣].

والحقيقة البادية للعيان أنّ هؤلاء الكتّاب الإيطاليّين لم يستمدّوا مادّة كتاباتهم عن السيرة من مظانّها الأصليّة، ولكن تلقّفوها من الحكايات الشعبيّة ومن الثقافة الشفويّة المتناقلة والمتداولة بين عامّة المسيحيّين وأسيادهم. فكانت الذاكرة الجماعيّة -كما أسلفنا ذكره- هي التي تمدّ المستشرقين الإيطاليّين بمواد كتاباتهم وإبداعاتهم، بعيدين عن المصادر الأساسيّة التي توجد فيها معلومات عن سيرة الرسول ﷺ. ويحدّثنا المؤرّخون عن أنّ الكتّاب اللاتينيّين قد أخذوا

١. الفيومي، الاستشراق في ميزان الفكر الإسلاميّ، ٣٣-٣٤.
٢. جوارفسكي، الإسلام والمسيحيّة، ٦٧-٦٨.
٣. م. ن، ٦٧.

يوجّهون اهتمامهم نحو حياة محمّد من دون اعتبار للدقّة، فأطلقوا العنان لجهل الخيال المنتصر.

والحقّ أنّ التعصّب الدينيّ والاعتقاد المسيء للرسول الكريم، وتبنّي الأفكار المتوارثة التي لا تليق برجال التغيير كدانتي مثلًا هي التي تفسد الأجواء عادّة، وتقصي كلّ فرص التوافق والتحاور الدينيّ المنفتح على حقيقة إلهيّة واحدة، وهي وحدانيّة الربّ الأعظم والإخلاص لتعاليمه الموجودة في كتبه المقدّسة، وأهمّها القرآن الكريم.

ومن المؤسف أنّ هذه التصوّرات الظلاميّة ضدّ النبيّ ﷺ قد لازمت الفكر الدينيّ والثقافيّ بأوروبا، خاصّة عند مفكّري عصر النهضة وعصر الأنوار، وحتى أولئك الذين كانوا خارج أسوار الكنيسة وعلم اللاهوت كما هو الحال بالنسبة لفولتير وموقفه المعادي للرسول ﷺ في رسالته (محمّد).

لقد أسهم الإيطاليّون بدورهم في إعادة تشكيل الصورة النمطيّة عن النبيّ ﷺ وفق النموذج الذي ترسّخ منذ عهد البيزنطيّين، فأعادوا إنتاجه. ومن ثمّ إنتاج العداء والأفكار الخرافيّة من جديد، وأذكوا جذوة الشقاق والكراهية والحقد ضدّ رسول الإسلام. فأذاعوها في باقي بلدان أوروبا على أنّها حقيقة ثابتة لا رجعة فيها عن الرسول الكريم وعن الإسلام.

ومن القصص الشهيرة التي راجت في أوروبا في القرون الوسطى عن النبيّ ﷺ أنّه كان كاردينالًا إيطاليًّا للكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة، وكان اسمه (ماهومت)، وبعد أن فشل في الجلوس على كرسيّ البابوية، هرب إلى الجزيرة العربيّة، وأسّس دينه الجديد نكاية في البابا وكنيسة روما؛ ولذلك فإنّه في سنة ١٤١٥م في إيطاليا في مدينة (بولونيا) بكنيسة (سان بيترونيو) تمّ رسم صورة شخصٍ عارٍ وهو ممدّد أرضًا ويُعذّب في جهنّم بشكل بشع، رسم فيها هذا الشخص والشياطين تأكله في جهنّم. وقد كُتب على جانبها بحروف واضحة اسم محمّد ﷺ، أستغفر الله العظيم[1].

للأسف! هذه هي التصوّرات والمواقف الظلاميّة التي كانت سائدة بإيطاليا ورائجة آنذاك، بين علمائها ومفكّريها ومثقّفيها وكهنتها، وبين بسطائها وعامّة شعبها على حدّ سواء.

١. فضل، تأثير الثقافة الإسلاميّة في الكوميديا الإلهية لدانتي، ٦٠-٦١.

نموذج الأب ماراتشي قطيعة أم امتداد؟

لا يمكن الحديث عن الاستشراق الدينيّ الإيطاليّ في عصوره المتقدّمة من دون الحديث عن الأب لودفيكو ماراتشي (١٦١٢-١٧٠٠م)[1] الذي شكّل بحقّ منعطفًا خطيرًا في مسيرة الاستشراق الدينيّ الإيطالي الكلاسيكيّ. لكن قبل الحديث عن لودفيكو ماراتشي هناك شخصيّة إيطاليّة مهمّة سبقته تاريخيًّا إلى هذا المجال، وهي شخصيّة الأب الفرنسيسكاني دومينيك جرمانوس (١٥٨٨-١٦٧٠م)[2] الذي ولد بصقلية وتخرج بالعربيّة على يد الأب أوبيشيني في مدرسة القديس بطرس الرومانيّة، وتضلع منها، وكان على علم بالقرآن قلّ نظيره لدى علماء عصره. قضى في الشرق الأدنى أربع سنوات لتعلّم لهجاته الشعبيّة. خلّف أعمالًا كثيرة من أهمّها: الترجمان في تعلم لغة السريان لأوبيشيني (روما سنة ١٦٣٦)، ومعجم اللغة العربيّة، وقد كان الأوّل من نوعه (روما سنة ١٦٣٩)، ومعجم إيطاليّ عربيّ باللغة العامّيّة، ونصوص عربيّة سريانيّة باللاتينيّة، والمدخل التطبيقيّ إلى اللغات العربيّة والفارسيّة والتركيّة، والمعجم العربيّ لإيليا النسطوريّ، وقد حقّقه أوبيشيني، وترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينيّة، وهي أوّل ترجمة، إذ سبقت ترجمة ماراتشي بثلاثين سنة، عثر عليها المستشرق الفرنسيّ ديفيك سنة ١٨٨٣م[3].

ويمكن عدّ الأب لودفيكو ماراتشي أخطر شخصيّة لاهوتيّة إيطاليّة بذلت جهودًا كبيرة في سبيل ترسيخ الجدل الدينيّ المسيحيّ ضدّ الإسلام ورسوله ﷺ، بل أضحت مرجعًا أساسيًّا للتصوّرات الكاذبة والمفترية على السيرة النبويّة التي صارت فيما بعد رائجة بين المسيحيّين الإيطاليّين. إذ اتّخذت كتاباته طابع العنف والطعن والهجوم على الإسلام في مقابل الدفاع عن المسيحيّة، فقد أمضى أربعين عامًا في دراسة القرآن وكتب التفسير العربيّة لكي يحارب محمّدًا بسلاحه نفسه، وقد كانت حصيلة هذه الدراسة هذا العمل الضخم الذي أنجزه، والذي تضمّن

1. Marracc
2. Germanus
٣. صورة النبي محمّد ﷺ كما تخيّلها الغرب، موقع «نصرة محمّد رسول الله» عبر شبكة الإنترنت.

النـصّ العربيّ الكامل للقرآن مع ترجمة لاتينيّـة مصحوبة بهوامش توضيحيّة ونقض لكلّ فقرة قرآنيّـة على حدّة، وقـد أصدر ماراتشي قبل ذلك -في عـام ١٦٩١- كتابًا حول نقض القرآن، قدّم فيه لمحة عن حياة محمّد وعن القرآن، ثمّ برهن -كما يزعم- على بطلان الإسـلام، وحقيقة الديانة المسيحيّة.

ولد في ضاحية لوكا بمقاطعة توسـكاني سـنة ١٦١٢، وبعد دراسـته الأوّليّة دخل سلك الدراسات اللاهوتيّة والسريانيّة، ثمّ أصبح من رهبنة المردى ديو ومن علمائها. اشتهر بصلاحه، فتقلّد مناصب عدّة، درس أثناءها اللغات اليونانيّـة والعبريّة والسريانيّة والكلدانيّة والعربيّة، ودرّس هذه اللغات في كلّيّة سـابينزا بروما، ثمّ في كلّيّة بروجاندا بأمر البابا كليمنت السـابع، وعندما طُلب منه اختبار بعض الوثائق التي وردت من إسبانيا، وكان يظنّ أنّها للقدّيس سانت جيمس بَيّن ماراتشي أنّها ليسـت لذلك القدّيس، بل يمكن أن تكون من عمل بعض المسلمين الذين أرادوا خداع المسـيحيّين. ممّا حدا بالبابا أنوسـنتي الحادي عـشر باختياره للعمل عنده، وأسـبغ ثقته الكاملة عليه.. وبتوجيهات من البابا شرع في ترجمة لاتينيّة جديدة للقرآن الكريم. وذلـك للردّ على المسـلمين وللجدل الدينـيّ، والهجوم على النبيّ ﷺ والطعن في سـيرته. ففي «عـام ١٦٩٨م» قـام الأب الكاثوليكيّ «لودوفيتش ماراتشي»، وقـد كان كاهن اعتراف البابا «إنوسنت الحادي عشر» بترجمة معاني القرآن إلى اللاتينيّة، وأصبحت هذه الترجمة أساسًا لكثير مـن الترجمات الإنجليزيّة فيما بعد. وقد جعل «ماراتشي» إهداء الترجمة إلى الإمبراطور الروميّ «ليوبولد الأوّل»، وقدَّم لها بمجلد كامل أسـماه «دحض القرآن». وقد أشـار «عبد الله يوسف علي» -صاحب الترجمة الإنجليزيّة الشهيرة- في مقدّمة ترجمته إلى أنّ ترجمة «ماراتشي» اقتباسات من تفاسـيرَ عربيّةٍ مختلفة انتقاها بدقّة ثمّ لفَّقها ببعضها ليُحدِث لدى أوروبا أسـوأ انطباع عن الإسلام»[1].

وقد كانت لماراتشي حرّيّة الاستعانة بمكتبة الفاتيكان ومجموعات مكتبيّة أخرى كثيرة منها المجموعة المارونيّة، المجموعة الكارماليّة، مكتبة الكاردينال كاميللي ماكسيميس، مكتبة إبراهيم

١. العقيقي، المستشرقون، ١: ٣٦١.

الماروني وغيرها. وطبعت ترجمته مع آرائه في سيّدنا محمّدﷺ أوّل مرةّ في مدينة بدوا الإيطاليّة عام ١٦٩٨م، ثمّ ليبزك عام ١٧١٢م مع مقدّمة لكرسيان رنيشي. كما شارك في ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربيّة بمبادرة من مطران حلب سنة ١٦٢٤م، ونشرت في روما سنة ١٦٧١م[١].

من آثاره نذكر دراسة عن الإسلام (١٦٩١م)، ثمّ جعلها مقدمة لنشره القرآن متنًا وترجمة إيطاليّة حرفيّة مع شواهد من مصادر عربيّة لم ينشر معظمها حتّى يومنا هذا (بادوى ١٦٩٨)، ولئن صدرت الطبعة العربيّة للقرآن بعد أربع سنوات من طبعة هنكلمن (هامبورج ١٦٩٤)، فقد اختلفت عنها اختلافًا بيّنًا، وكان قد عاون على ترجمة الكتاب المقدّس إلى العربيّة (روما ١٦٧١)[٢].

ولا يحتاج الباحث المتتبّع لأعمال هذا الراهب كبير عناء لأن يسجّل عند تصفّحه لها أنّها لا تشتمل على الترجمة اللاتينيّة للقرآن الكريم فقط، وإنّما تتضمّن إلى جانب ذلك آراء ومواقف مضادّة للقرآن والإسلام وللرسولﷺ، بحيث يمكن القول «إنّ ترجمة ماراكيوس [ماراتشي] كانت أكثر رفضًا وتجريحًا من سابقتها، فهي أشدّ جدلًا وهجومًا على القرآن الكريم، وأدقّ ترجمة، وأوسع مصادر، وأكثر عمقًا وخبثًا، فشتّان بين عمل يستمرّ أربعين سنة من عالم زاهد، متمكّن من لغات شرقيّة عدّة وتحت يديه مكتبات الكنائس ومجموعات أخرى غنيّة بالكتب، وبين عمل روبرت الكيتوني من كيتون الفلكيّ الرياضيّ الذي تجرّم وسبّ وهاجم في سنة واحدة، وليس عنده كلّ تلك المراجع ولا المعرفة باللغات الشرقيّة. ولا شك أنّ تفنيدًا استغرق أربعين سنة يكون أكثر شرًّا من سابقه»[٣].

إنّ مقدّمة ترجمة ماراتشي تشبه إلى حدّ كبير مقدّمة ترجمة بيتر الكلوني، فقد فصل فيها وجهة نظر المسيحيّة في الديانات الأخرى، وجدّد فيها أساليب الهجوم على الإسلام والرسول وطريقة الجدل مع المسلمين بشكل أكثر حدة وأشدّ عنفًا من سابقه. حيث لم يغادر شيئًا من القرآن والسيرة إلّا ونقده.

---

١. ترجمات المستشرقين لمعاني الكتاب المبين: فيصل بن علي الكاملي، موقع البيان AL- BAYAN عبر شبكة الإنترنت.

٢. العسكري، القرآن الكريم وروايات المدرستين، الكتاب الثاني، عبر شبكة الإنترنت.

٣. العقيقي، المستشرقون، ٣٦٩.

ويُذكر هنا بأنّه عندما سرد سيرة الرسول ﷺ رجع إلى المصادر والكتب العربيّة، فإنّ ذلك ليس لثقته -كما ذكر- بهذه المصادر والكتب، ولكن حسب اعتقاده أنّه عندما نحارب أعداء الدين المسيحيّ، فإنّنا نهاجمهم بسلاحهم وليس بسلاحنا؛ لذا فإنّنا عندما ننتصر عليهم تكون سعادتنا أكبر.

يقول الدكتور حسن معايرجي في هذا السياق وهو يبيّن خطورة هذه الترجمة وما استتبع ذلك وما ورد معها من هوامش وحواش يسبّ فيها ماراتشي ويعلن وقاحته وشروره تجاه خير الورى شرفًا الرسول ﷺ، يقول معايرجي: «... والواقع أنّ رأس الفتنة هي الترجمة اللاتينيّة الأولى عام ١١٤٣م... التي لم تكن ترجمة فقط، وإنّما أضيف إليها هجوم وقدح في الإسلام والقرآن ونبيّ المسلمين عليه الصلاة والسلام فيما يسمّونه الجدل (Polemics)، ثمّ لحقتها الترجمة اللاتينيّة الثانية ١٧٢١م لماراتشي وهي أشدّ قدحًا وهجومًا من الأولى»[١].

وهذا الرجل هو الذي خطب يومًا في حشد من المسيحيّين، فأشار قائلًا: من الضروريّ إذن أن لا نحارب الإسلام من دون أن نعرفه تمامًا ليسهل القضاء عليه.

وإذا ما وضعنا طبيعة هذه المواقف والانتقادات الموجّهة من قبل ماراتشي ضدّ الإسلام ورسوله الكريم وقارنّاها مع تلك التي كان يتبنّاها المشروع الكلوني، فإنّنا قد لا نغالي إذا قلنا إنّ الاستشراق ملّة واحدة، فكلاهما قام بترجمة القرآن ترجمة لاتينيّة، وكلاهما ألّف عن الرسول ﷺ وسلك مسلك الحقد، والكراهيّة، والخبث، فوصف السيرة بأخبار خرافيّة وأسطوريّة كاذبة ومزيّفة. وكلاهما اتّسم بالنزعة الهجوميّة على سيدنا محمّد ﷺ وسيرته العاطرة. وإذا كان المشروع الكلوني قد ألّف ثلاثة مصنّفات ترجمت هي الأخرى إلى اللاتينيّة، وهي (نشوء محمّد) و(عقيدة محمّد) و(الأحاديث الإسلاميّة)، فإنّ ماراتشي صنّف على هامش ترجمته للقرآن أخبارًا عن الرسول وسيرته انتهج فيه نهج أسلافه من الحاقدين على الإسلام والمسلمين.

لقد اهتمّ الاستشراق الإيطاليّ بالرسول ﷺ، ولكنّه اهتمام من نوع خاصّ، اهتمام قصده تصوير الرسول ﷺ في العقل الإيطاليّ الغربيّ على أنّه نبيّ مزيّف وكذّاب، فشنّت الكنيسة الإيطاليّة

١. العسكري، القرآن الكريم وروايات المدرستين، الكتاب الثاني، عبر شبكة الإنترنت.

حربًا مقدّسة ضدّ الإسلام والنبيّ الكريم في تشويه صورته وسيرته، والرسول في الإسلام هو النموذج التطبيقيّ والإجرائيّ الأسمى للقرآن الكريم وتعاليمه، وما ينبغي أن يمارس على أرض الواقع والطعن فيه وفي سيرته هو بمثابة الطعن في القرآن الكريم وفي الإسلام بشكل عامّ.

إذن لم تنبثق المعرفة الاستشراقيّة الإيطاليّة بسيرة الرسول ﷺ من واقع محايد وموضوعيّ يصف الأشياء كما هي، وينقلها بأمانة تاريخيّة وعلميّة وحضاريّة ودينيّة وإنسانيّة، بل مع الأسف! تشكّلت هذه المعرفة في مستنقعات راكدة، يسقيها رجال الكنيسة بمياه آسنة وتغذّيها الكنيسة بسمومها القاتلة، فأفرزت في إطار ذلك حقدًا وعدوانيّة وتصادمًا بين المسلمين والمسيحيّين، ولم تترك فرصة الحوار الدينيّ والحضاريّ الهادئ الذي يوصل إلى نتائج دينيّة مقبولة ومتبنّاة من كلا الطرفين.

الاستشراق الدينيّ الأوروبيّ ورجع الصدى لنموذج ماراتشي

ننتقل الآن لنرى كيف تمّ التعامل مع أفكار ماراتشي وترجماته من قبل مستشرقين أوروبيّين آخرين في ضمن الاتجاه السائد والعام الذي يمكن تسميته بالتحالف الدينيّ الكنسيّ الأوروبيّ ضدّ المدّ الإسلاميّ، وضدّ رسوله ﷺ، فمثلًا لم تكد تظهر ترجمات ماركيوس [ماراتشي] سالفة الذكر حتى قام دافيد نريتر بترجمتها إلى الألمانيّة سنة ١٧٠٣م. وكانت أوسع ترجمة انتشارًا نقلت عن ماراتشي هي الترجمة الإنجليزيّة لجورج سال -كما ذكرنا آنفًا- التي أضحت الأداة أو الجسر الذي نقلت عبره أفكار ماراتشي عن الإسلام ونبيّ الإسلام سيّدنا محمّد ﷺ إلى اللغات الأوروبيّة بشكل عامّ[1].

ويمكن القول أيضًا إذا كانت ترجمة دير الكلوني اللاتينيّة الأولى قد أحدثت أثرًا كبيرًا على الترجمات والكتابات الأوروبيّة الأخرى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فإنّ ترجمة ماراتشي كان لها الأثر نفسه أو أكثر خلال القرن الثامن عشر على المصنَّفات الأوروبيّة التي اتّخذت من الإسلام ورسوله مادّة بحثها.

---

١. معايرجي، الهيئة العالميّة للقرآن الكريم، ضرورة للدعوة والتبليغ، ٥٧.

فنال مشروع ماراتشي العدائيّ للرسـول وللإسلام بذلك حظًّا وافرًا من السعة والانتشار والذيوع في إيطاليا خاصّة وفي سـائر دول أوروبا. وحازت أفكاره على شعبيّة كبيرة، وأضحت بمثابة دستور المنصّرين والمستشرقين الذين جاؤوا بعده في إيطاليا وسائر دول أوروبا.

ثالثًا: الاستشراق الدينيّ الإيطاليّ الحديث والرغبة في تخطّي معوقات الماضي وتجاوزها

لا شكّ في أنّه خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر انبثقت تصوّرات جديدة ناضجة إلى حدّ ما إزاء الموضوع، فأسّست لتعامل قريب من السيرة النبويّة ومن تفاصيلها، وطرأ كذلك تقدّم في نظرة المستشرق الإيطاليّ لمؤسس هذا الدين الإسلاميّ ولسيرته.

وهذا التحوّل في الرؤى والتصوّرات وفي طرائق التناول كان نتيجة حتميّة للتطوّرات التي شهدتها أوروبا خلال تلك الفترة، وتجاوزها لمخلّفات الإرث الماضي، حيث شيّدت على أنقاضه مواقف ومنطلقات أكثر تحرّرًا من النزعة اللاهوتيّة وسـلطة الكنسـية ورهبانها. وإن ظلّت مع ذلك رواسبها بادية حينًا مختفية أحايين أخرى.

ولا شكّ في أنّ هذه الرياح الجديدة قد أتت بأسماء إيطاليّة وازنة في مجال الدراسات الدينيّة الاستشراقيّة بإيطاليا أمثال دافيد سانتيلانا (١٨٥٥-١٩٣١م)، والأمير ليوني كيتاني (Caetani, Leone) (١٨٥٩-١٩٢٦م)، وكارلو ألفونصو نللينـو (Nallino, Carlo Alfonso) (١٨٧٢-١٩٣٨م)، وميكلانجلو جويدي (Guidi, Michelangelo) (١٨٨٦-١٩٤٠م)، وفرانسيسكو غابرييللي (١٩٠٤- ١٩٩٧م) صاحب كتاب (محمّد) الذي صدر عام ١٩٦٥م.

يعدّ الأمير ليـوني كيتـاني (١٨٥٩-١٩٢٦م) من أبرز المسـتشرقين الإيطاليّين المحدثين، زار كثـيرًا مـن البلدان الشرقيّة منها الهند وإيران ومصر وسـوريا ولبنان. مـن مؤلّفاته المهمّة: «دراسـة التاريخ الشرقيّ»، عدّة مجلدات عدّة (ميلانـو ١٩١١ وما بعدها)، وقد خصّص منها مجلّدًا لسـيرة الرسول ﷺ، كما يعدّ كتابه (حوليّات الإسلام) مرجعًا مهمًّا لكثير من المستشرقين. وربما كانت كتاباته «أكثر انتفاعًا بالمظان العربيّة الأصليّة وأكثر قربًا في تقديم صورة أكثر صحّة نسبيًّا، ولكنّها لا تخلو من الهفوات والشطحات. لقد ظهرت دراسة كيتاني الموسومة (حوليّات

الإسلام) سنة ١٩١٤م مؤكّدة على العوامل الاقتصاديّة والاجتماعيّة في نشوء الإسلام وتطوّره، ولكنّها في الوقت نفسه ترفض فرضيّة هيوبرت جريم، التي تعدّ الدافع الاقتصاديّ الدافع المحرّك الوحيد في ظهور الإسلام. وبعد أن يرفض كيتاني فرضيّة جريم بعدّها تفسيرًا متطرّفًا ومبتسرًا يعطي الدافع الدينيّ مركزًا قويًّا في الدعوة الإسلاميّة، ويختم كيتاني دراسته بحكم عادل موضوعيّ عن إخلاص الرسولﷺ، وتفانيه في سبيل المصلحة العامّة ورغبته في تحقيق الخير والنتائج المهمّة التي حقّقها خلال حياته»[١].

وممّا قاله في شخصيّة الرسول وأهمّيّته ما يأتي: «لا أخفي عليكم أنّ حبّي الجارف للإسلام وتاريخه المشرق نابع من شدّة حبّي وإعجابي برسول الإسلام الذي أوقف حياته ليهدى البشريّة بتعاليمه التي كان تأثيرها في نفسي هو الدافع الحقيقيّ لي كي أسهم في دعم هذه الدعوة الخالصة»[٢].

كما يقول في كتابه «تاريخ الإسلام»: «أليس الرسول جديرًا بأن تُقدّم للعالم سيرته حتّى لا يطمسها الحاقدون عليه وعلى دعوته التي جاء بها لينشر في العالم الحبّ والسلام؟! وإنّ الوثائق الحقيقيّة التي بين أيدينا عن رسول الإسلام ندر أن نجد مثلها، فتاريخ عيسى وما ورد في شأنه في الإنجيل لا يشفى الغليل»[٣].

ولا يبتعد ميجيلانجلو جويدي عن هذا الرأي، فقد أعطى للرسولﷺ مركزًا مرموقًا كمؤسّس للدين الإسلاميّ واعترف بدوره الحيويّ والمهمّ قائلًا: «لقد لعب محمّدﷺ دورًا مهمًّا في كسب النفوس التي كانت بعيدة جدًّا عن معرفة الحقيقة ومغمورة في عبادة الأوثان وجعلهم يوقنون بالقوّة الإلهيّة المقدّسة وبالثواب والعقاب العادل والطاعة إلى الإله الحقّ الواحد لكلّ البشريّة»[٤].

---

١. زقزوق، «الرسالة المحمّديّة في المؤلّفات الغربيّة»، ٤٢٦.

٢. فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلاميّ (القرون الإسلاميّة الأولى)، ٥٦-٥٧.

٣. حسيني معدى، الرسولﷺ في عيون غربيّة منصفة، ١٢٦.

٤. م. ن، ١٧٧.

لقد كانت له نظرة أصيلة تجاه الرسول ﷺ، وللدور الهائل الذي قامت به شخصيّة النبيّ محمّد ﷺ في تكوين الإسلام وتشكيله: عقيدة وسياسة وحضارة، وللطابع القوميّ للعرب في تشكيل الإسلام. وقد نوّه كثيرًا بالرسول الكريم ودوره الرياديّ قائلًا أيضًا: «لم يأت محمّد بدين من عنده، وإلّا ما كان هذا الدين مستمرًّا إلى يومنا هذا، وأرى أنّ العالم سيعرف هذا الدين ذات يوم قريب. والذي يريد أن يتعرّف على الإسلام أدعوه ليتعرّف على سيرة المصطفى الذي تمّ اختياره وتدريبه وتأديبه من السماء ليكون أهلًا للرسالة التي تمّ صنعه من الله لها منذ الأزل»[1].

يقول عبد الرحمن بدوي عنه وعن موقفه من شخصيّة الرسول الكريم ﷺ: «...لكن أكبر آثاره في ميدان دراسة الإسلام هو الفصل الطويل الذي كتبه بعنوان: «تاريخ الدين الإسلاميّ» ضمن كتاب شامل عنوانه: «تاريخ الأديان»، وعلى الرغم من أنّ هذا الفصل عامّ ومقصود به عامّة القرّاء، فإنّ فيه نظرات أصيلة، والفكرة الأساسيّة فيه هي توكيده لأصالة الإسلام، وللدور الهائل الذي قامت به شخصيّة النبيّ محمّد في تكوين الإسلام وتشكيله: عقيدة وسياسة وحضارة وللطابع القوميّ للعرب في تشكيل الإسلام، وبهذه الفكرة عارض ما ذهب إليه جولدتسيهر من مبالغة في تقدير دور العوامل والمؤثّرات الأجنبيّة (وبخاصّة اليهوديّة)»[2].

وممّا يجدر ذكره أنّ المرحلة الحديثة في مسيرة الاستشراق الدينيّ الإيطاليّ قد شهدت ارتفاع نبرة الإنصاف والموضوعيّة تجاه الإسلام ورسوله الكريم، ورؤية المعطيات والحقائق المرتبطة بهما بمنظار النزاهة والحياديّة والأمانة العلميّة، فباتت تنكشف لهم الحقيقة المحمّديّة ناصعة جليّة وبادية للعيان التي طمستها قرون الحقد والعداء والكراهيّة، فأضحى هؤلاء الكتاب والمفكّرون يتحرّكون على وفق هذه التصوّرات الجديدة الإيجابيّة.

فظهرت إلى جانب المستشرقين الذين ذكرناهم آنفًا أسماء استشراقيّة أخرى وازنة بإيطاليا لها مواقف نزيهة وأكثر إنصافًا وموضوعيّة من تلك التي ذكرناها آنفًا ونخصّ بالذكر المستشرقة الإيطاليّة المعاصرة لورافيشيا فاغليري التي نوّهت بعظمة الرسول ﷺ وبنقاء سيرته وصفائها في

---

١. م. ن، ١٦٩

٢. م. ن.

كتابها (دفاع عن الإسلام) قائلة: «كان محمّدﷺ المتمسّك دائمًا بالمبادئ الإلهيّة شديد التّسامح، وبخاصّة نحو أتباع الأديان الموحّدة. لقد عرف كيف يتذرعّ بالصبر مع الوثنيّين، مصطنعًا الأناة دائمًا، اعتقادًا منه بأنّ الزمن سوف يتمّ عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور... لقد عرف جيّدًا أنّ الله لا بدّ من أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشريّ. وحاول أقوى أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد أن يرموا نبيّ الله ببعض التهم المفتراة، لقد نسوا أنّ محمّدًا كان قبل أن يستهلّ رسالته، موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته. ومن العجب أنّ هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوى محمّدﷺ على تهديد الكاذبين والمرائين، في بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبديّة، لو كان هو قبل ذلك (وحاشاه) رجلًا كاذبًا؟ كيف جرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمّة قوى داخليّة تحثّه -وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة- حثًّا موصولًا؟ كيف استطاع أن يستهلّ صراعًا كان يبدو يائسًا؟ كيف وفّق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات، في مكّة، في نجاح قليل جدًّا، وفي أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمنًا إيمانًا عميقًا بصدق رسالته؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا في الدين الجديد ويشدوا أنفسهم من ثمّ إلى مجتمع مؤلف في كثرته من الأرقّاء، والعتقاء، والفقراء المعدمين، إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتّى بين الغربيّين يكاد ينعقد الإجماع على أنّ صدق محمّدﷺ كان عميقًا وأكيدًا. لقد دعا الرسول العربيّﷺ بصوت ملهم باتصال عميق بربّه، دعا عبدة الأوثان، وأتباع نصرانيّة ويهوديّة محرّفتين على أصفى عقيدة توحيديّة. وارتضى أن يخوض صراعًا مكشوفًا مع بعض نزعات البشر الرجعيّة التي تقود المرء إلى أن يشرك بالخالق آلهة أخرى»[1]...

ثمّ تضيف في السياق نفسه قائلة: «.. إنّ محمّدًاﷺ طوال سنين الشباب التي تكون فيها الغريزة الجنسيّة أقوى ما تكون، وعلى الرغم من أنّه عاش في مجتمع كمجتمع العرب، حيث كان الزواج، كمؤسّسة اجتماعيّة، مفقودًا أو يكاد، وحيث كان تعدّد الزوجات هو القاعدة،

١. بدوي، موسوعة المستشرقين، ٢٢٠.

وحيث كان الطلاق سهلًا إلى أبعد الحدود، لم يتزوّج إلّا من امرأة واحدة ليس غير، هي خديجة -رضي الله عنها- التي كانت سنّها أعلى من سنّه بكثير، وأنّه ظلّ طوال خمس وعشرين سنّة زوجها المخلص المحبّ، ولم يتزوّج مرّة ثانية، وأكثر من مرّة، إلّا بعد أن توفّيت خديجة، وإلّا بعد أن بلغ الخمسين من عمره. لقد كان لكلّ زواج من زيجاته هذه سبب اجتماعيّ أو سياسيّ، ذلك بأنّه قصد من خلال النسوة اللاتي تزوّجهنّ إلى تكريم النسوة المتّصفات بالتقوى، أو إلى إنشاء علاقة زوجيّة مع بعض العشائر والقبائل الأخرى ابتغاء طريق جديد لانتشار الإسلام باستثناء عائشة ليس غير، تزوّج محمّدﷺ من نسوة لم يكنّ لا عذارى، ولا شابات، ولا جميلات، فهل كان ذلك شهوانيّة؟ لقد كان رجلًا لا إلهًا. وقد تكون الرغبة في الولد هي التي دفعته أيضًا إلى الزواج من جديد، لأنّ الأبناء الذين أنجبتهم خديجة -رضي الله عنها- له كانوا قد ماتوا. ومن غير أن تكون له موارد كثيرة أخذ على عاتقه النهوض بأعباء أسرة ضخمة، ولكنّه التزم دائمًا سبيل المساواة الكاملة نحوهنّ جميعًا، ولم يلجأ قط إلى اصطناع حقّ التفاوت مع أيّ منهن. لقد تصرف متأسّيًا بسنّة الأنبياء القدامى -عليهم السلام-، مثل موسى وغيره، الذين لا يبدو أنّ أحدًا من الناس يعترض على زواجهم المتعدّد. فهل يكون مردّ ذلك إلى أنّنا نجهل تفاصيل حياتهم اليوميّة، على حين نعرف كلّ شيء عن حياة محمّدﷺ العائليّة»[1]؟.

الموقف الإيجابيّ والنزيه نفسه اتّخذته هذه المستشرقة تجاه القرآن الكريم بوصفه نصًّا إلهيًّا معجزًا، من الصعب أن يكون من إبداع المخلوقات كيفما كان نوعها، أو جنسها. أو قدرتها بقولها:

«إنّ معجزة الإسلام العظمى هي (القرآن) الذي ينقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة من خلال الأنباء تتّصف بيقين مطلق، إنّه كتاب لا سبيل إلى محاكاته.. إنّ آياته على مستوى واحد من البلاغة، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوّته، إنّنا نقع هنا على العمق والعذوبة معًا، وهما صفتان لا تجتمعان عادّة، فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمّد، وهو العربيّ الأمّيّ»[2].

---

١. نقلًا عن: حسيني معدى، «الرسولﷺ في عيون غربيّة منصفة»، ١٣٧-١٣٨.

٢. م. ن، ١٣٨-١٣٩.

كما تؤكّد هذه المستشرقة على مصدر القرآن الإلهيّ بصفاء النصّ القرآنيّ عبر القرون إلى أيّامنا هذه، وإلى ما شاء الله، فتقول: «ولا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهيّ في هذه الحقيقة هو أن نصّه ظلّ صافيًا غير محرّف طول القرون التي تراخت مابين تنزيله ويوم الناس هذا، وإنّ نصّه سوف يظلّ على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف بإذن الله ما دام الكون»[١].

لقد أشادت هذه المستشرقة المنصفة بالرسول الكريم، وبدوره العظيم في خدمة هذه البشريّة والارتفاع بها إلى مدارج السموّ والرقيّ في الأخلاق والمعاملات والعقائد والعبادات.

ولهذا فمن بين السمات المركزيّة والبارزة التي بدأت تظهر في كتابات هؤلاء المستشرقين الإيطاليّين المحدثين هي تغيّر النظرة والمواقف تجاه الموضوع المطروق، فقد أفرزت التحوّلات التي شهدها العصر الحديث على مستوى تطور العلوم الإنسانيّة ومناهج البحث العلميّ نسقًا من التصوّرات والرؤى الإيجابيّة لدى هؤلاء المستشرقين الإيطاليّين تجاه موضوع «الإسلاميّات» فاحترموا حدود اشتغالهم العلميّ، فغدَوا -إلى حدّ ما- يقدّمون نتائج موضوعيّة وأمينة عن الرسول الكريم والإسلام.

الخاتمة

نسجّل في ضوء ما درسناه سابقًا من مواقف وتصوّرات اتّخذها المستشرقون من قضايا السيرة النبويّة بعض الملاحظات المهمّة التي تبدّت لنا ونحن نقارب تجلّيات هذا الموضوع وأفكاره، وهي:

- أنّ أغلب هذه الدراسات قد نبعت من قلوب حاقدة، خاصّة عند أصحاب المرحلة الأولى من مراحل الاستشراق الإيطاليّ القديم، الذي كان يؤطّره رجال الدين والكنيسة الكاثوليكيّة، فغلبت على أصحابه العاطفة الدينيّة المتعصّبة على حساب الحقيقة العلميّة الناصعة.
- تحامل على شخصيّة الرسول ﷺ وقلب الحقائق وانتهاج لغة السباب والحقد والتشويه،

١. الجندي، الإسلام والثقافة العربيّة في مواجهة تحدّيات الاستعمار وشبهات التغريب، ٣٠٦-٣٠٧.

وكل ذلك لم يأت سهوًا أو عفوًا، بل كان بتخطيط مستهدف ومقصود.

- لجوء بعض المستشرقين الإيطاليّين إلى التصرّف في بعض نصوص السيرة حتّى تغذّي آراءهم ورغبتهم في الطعن والافتراء والكذب على الرسول ﷺ وتزييف أخباره.
- استغلال بعض الرهبان الإيطاليّين المواقف العدائيّة والسياقات التاريخيّة كالحروب الصليبيّة مثلًا؛ لإذكاء نيران الحقد والهجوم في حقّ شخص الرسول ﷺ.
- هناك من درس السيرة بعقليّة منغلقة تشكّكيّة، وقد نما هذا الموقف المتعصّب بسبب امتداد رقعة الإسلام في أوروبا، وفزع رجال الدين من هذا المدّ الصحّيّ الجديد، ولهذا تمّ اللجوء إلى الوسائل المشروعة وغير المشروعة للنيل من هذا الدين ومن مؤسّسه.
- إرجاع معطيات السيرة ومكوّناتها إلى أصول يهوديّة أو مسيحيّة لإضفاء صبغة التبعيّة على الرسول وبأنّه لم يأتِ بجديد في مجال العبادة.
- إنّ هذه المواقف التي اتّخذها المستشرقون الإيطاليّون من سيرة المصطفى ﷺ لم تكن إلّا وسيلة من وسائل العداء التاريخيّ الطويل الذي دار بين المسيحيّين والمسلمين، منذ أن شكّل الإسلام خطرًا دائمًا على الكنيسة وعلى مصالحها الجغرافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، ولذلك عمدت إلى رسم صورة مشوّهة ملفّقة عن الرسول ﷺ بوصفه نوعًا من التحصين للمجتمع المسيحيّ من إنجازات المسلمين وانتصاراتهم.

وهكذا تشكّلت صورة الرسول ﷺ وأخباره وسيرته في البحث الاستشراقيّ الدينيّ عبر ذهنيّة معادية ومحكومة بنمطيّة ثابتة جامدة لا تاريخيّة، خصوصًا في مراحله الأولى المتقدّمة حيث كانت نتيجة حتميّة من نتائج الحروب الصليبيّة، وما رافقها من صراعات دمويّة زادت من درجات الحقد في النفوس والعداء في القلوب ضدّ مؤسّس هذا الدين سيّدنا محمّد ﷺ، فلم تهدأ حدّة هذه المواقف نوعًا ما إلّا في الفترات القليلة الأخيرة، عندما ظهرت خطابات استشراقيّة إيطاليّة أكثر موضوعيّة ونزاهة في تعاملها سيرة المصطفى ﷺ.

لائحة المصادر والمراجع

١. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٤م.
٢. الجندي،أنور، الإسلام والثقافة العربيّة في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب، مطبعة الرسالة.
٣. جوارفسكي، أليكسي، الإسلام والمسيحيّة، ترجمة عن الروسيّة: خلف محمّد الجراد، سلسلة عالم المعرفة الكويتيّة، عدد ٢١٥، نوفمبر ١٩٩٦م.
٤. حسيني معدى، حسين، الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، دار الكتاب العربيّ، ط١، ١٤١٩هـ.
٥. الخيري، فيصل صالح، «صورة الرسول ﷺ في الغرب، خرافات وأباطيل»، جريدة الأهرام العربيّ، عدد ٥٠١ ب، ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٦.
٦. زقزوق، محمود حمدي، «الرسالة المحمّديّة في المؤلّفات الغربيّة (الحلقة الثانية)»، جامعة قطر، مركز بحوث السنة والسيرة، ع ٥، محكمة، ١٩٩١م، الصفحات: ٤٢٠ - ٤٦١.
٧. ساري، حلمي حضر، صورة العرب في الصحافة البريطانيّة: «دراسة اجتماعيّة للثبات والتغير في مجمل الصورة»، ترجمة: عطا عبد الوهاب، مركز دراسات الوحدة العربيّة، سنة ١٩٨٨م.
٨. العقيقي، نجيب، المستشرقون، الجزء الأول، مصر، دار المعارف، ط٣، ١٩٦٤.
٩. فضل، صلاح، تأثير الثقافة الإسلاميّة في الكوميديا الإلهية لدانتي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
١٠. فوزي، فاروق عمر، الاستشراق والتاريخ الإسلاميّ (القرون الإسلاميّة الأولى)، لبنان، منشورات الأهليّة، سنة ١٩٩٨م.
١١. فوك، يوهان، تاريخ حركة الاستشراق، ترجمة عن الألمانية: عمر لطفي العالم، بيروت، دار المدار الإسلاميّ، ط٢.
١٢. الفيومي، محمّد إبراهيم، الاستشراق في ميزان الفكر الإسلاميّ، القاهرة، «سلسلة قضايا إسلاميّة» يصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
١٣. الكاملي، فيصل بن علي، «ترجمات المستشرقين لمعاني الكتاب المبين»، موقع البيان AL- BAYAN عبر شبكة الإنترنت.

١٤. معايرجي، حسن، الهيئة العالميّة للقرآن الكريم، الدوحة، ضرورة للدعوة والتبليغ، ١٩٩١م.
١٥. موقع الاستشراق وترجمة القرآن الكريم، دراسات وأخبار حول ترجمات معاني القرآن الكريم، عبر شبكة الإنترنت.
١٦. ناجي، عبد الجبار، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربيّ، بغداد، ١٩٨١م.
١٧. الندوي، عبد الله عباس، ترجمات معاني القرآن الكريم وتطور فهمه عند الغرب، دعوة الحق، كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلاميّ، جمادى الآخرة ١٤١٧هـ، العدد ١٧٤، السنة الخامسة عشرة.
١٨. يغانموللر، غوستاف، سيرة الرسول في تصوّرات الغربيّين، ترجمة: محمود حمدي زقزوق، ع ١، الناشر: جامعة قطر – مركز بحوث السنة والسيرة، العدد الأوّل، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، الصفحات: ٧٤ – ١٢١.
19. Arberry, A, The Koran Interpreted, New York; The MacMillan Company, 1955.